سِلْسِلَةُ رَسَائِلِ راحَةِ الأَرْوَاحِ

المجموعة الأولى [1 - 5]

الرسالة الأولى

فَـرَحُ الْعَبْــدِ الأَوَّاهِ

بِمَعْــرِفَــةِ اللَّــهِ

الطُرُقُ الموصِّلةُ إلى مَعرِفةِ اللهِ تعالى بالتَّفكُّرِ في آياتِه القرآنية والكونية وأسمائه الحسنى العلية و أَثَرُهَا عَلَى ظَاهِرِ المُسْلِمِ وَبَاطِنِهِ وصفاتُ القَلبِ الموصولِ باللهِ تعالى

تأليف

راجي رحمة ربه ذي المِنَنْ

الدكتور : أحمد خضر حسنين الحسن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

استفتاح

قال الله تعالى :

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ) سورة آل عمران (190-192) .

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قال له :

(تَعرَّف إلى اللَّهِ في الرَّخاءِ ، يَعرِفْكَ في الشِّدَّةِ قد جفَّ القلَمُ بما هوَ كائنٌ ، فلَو أنَّ الخلقَ كُلَّهُم جميعًا أَرادوا أن ينفَعوكَ بشَيءٍ لم يقضِهِ اللَّهُ لَكَ ، لَم يَقدِروا عليهِ ، أو أرادوا أن يضرُّوكَ بشيءٍ لم يقضِهِ اللَّهُ علَيكَ ، لَم يقدِروا علَيهِ ... واعلَم أنَّ ما أصابَكَ لم يكُن ليُخطِئَك وما أخطأَكَ لم يكُن ليُصيبَكَ) حسنه السخاوي في المقاصد الحسنة .

ورحم الله القائل :

الحمدُ للخالِقِ الذي حرّك السّـ ـساكنَ مِنَّا وسكَّن الحَرِكا

وقامتِ الأرضُ والسَّماءُ بهِ وما دحى مِنْهما وما سَمَكَا

وقلّب الليلَ والنَّهارَ وصبَّـ ـبَ الرِّزقَ صبًّا ودبَّر الفَلَكا

المحتويات

تصدير

أسباب إصدار رسائل راحة الأرواح

لما كانت المادة هي أساس بناء الجسد ليقوى على عبادة الله عز وجل ، كما أن الروح هي أساس الجانب المعنوي داخل الإنسان ليستشعر حلاوة **الإيمان بالله رباً وبالإسلام ديناً وبسيدنا محمد . صلى الله عليه وسلم . نبياً ورسولا**. ولقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة بقول الله عز وجل : **(وَ ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَالْآخِرَةَ وَلَا تَنس نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)** سورة القصص (77) ، **كان من الواجب على المسلم الصادق القوي الإيمان أن يبتغي بكل شئ وجه الله ، وأساس ذلك قول الله تبارك وتعالى : (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)** سورة الأنعام (162- 163) . فالحياة معبَرٌ للآخرة، وبالتالي ينبغي أن تكون كلُّ حركاتنا وسكناتنا مؤطرةً بهذا الإطار .

ولما ضعفت تقوية الصلة بالله تعالى في حياة عدد كبير من المسلمين جاءت هذه السلسلة من الرسائل مذكرة للمؤلف ولكل مسلم ، وتتلخص الأسباب في يلي [1].

أولاً : لا ينبغي أن نعطي الدنيا أكبر من قيمتها فلا نعيش فيها كأننا لن نفارقها أبدا، كما أنه لا ينبغي أن ننسى حظنا منها، فذلكم المنهج الحكيم الذي جاء به الإسلام هو المنهج الأقدر على تحقيق رغبات الإنسان من هذه الدنيا دون نسيان التزود والاستعداد ليوم الرحيل.

ثانياً : الحاجة إلى تقوية الجانب الروحي في غمرة انشغال الإنسان بالدنيا ينسى تقوية جانب الروح فيه مما يجعله ينغمس في الملذات والشهوات وينشغل بالماديات، وبالتالي يبقى هذا الإنسان خالداً إلى الطين محكوماً بقوانين الشهوة، الحس، وعالم الشهادة، غير متطلع إلى السماء، وبهذا ينسلخ عن جوهر آدميته وإنسانيته فيصير حقارة معنوية لعالم الحيوان كما قال تعالى (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) سورة الفرقان (44)

1- الثلاثة الأسباب الأولى نقلا عن مقال : في زمن طغيان المادة .. الحاجة إلى التربية الروحية - لرشيد لخضر - موقع مغرس – بتصرف .

أما الإنسان المسلم فهو الذي يمثل التجاوز الحقيقي للوضع الحيو اني ، ورغم كل الصعاب والعقبات والإنشغالات التي تحاول الضغط عليه لترغمه على هذا الأمر إلا أنه يقاوم مقاومة الأبطال، ويكد ويجاهد نفسه من أجل ذلك قال تعالى (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) سورة الانشقاق (6) وقال تعالى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) سورة العنكبوت (69) .

*** *** ***

ثالثاً : التربية الروحية جهاد متواصل ومعاناة كبيرة، وقد جعل ديننا الحنيف عدة وسائل تعين على هذا الأمرومن ذلك : قيام الليل، والذكر، وتلاوة القرآن الكريم والمحاسبة والاعتكاف، وكل ما يقوي الصلة بالله تعالى ويحقق الأجواء الإيمانية وينمّيها ويحافظ على دوامها، فإذا أخذنا على سبيل المثال قيام الليل، قال تعالى:(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) سورة الذاريات (15-18) .

وعن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَابُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ) رواه الترمذي ، وهذا التأكيد على فضل قيام الليل له دوره الكبير في الحرص على ذلك لأنه من الوسائل المهمة لمجاهدة للنفس، حيث يكون الناس نيام و أنت قائم تناجي ربَّك وترجو رحمتَه رغم تعب النهار، وسلطان النوم، والشعور بالوحدة في جوف الليل. وباعتبار ذلك يكون قيام الليل أشد وطئاً، وأكبر أثراً على بناء الإرادة، والصبر، وبناء الجهاز الحاكم في الشخصية الإسلامية.

وما أحوج الإنسان المؤمن في الدرب الطويل ، والمسيرة الصعبة وعناء الدعوة إلى بناء الإرادة، وتكوين ملكة الصبر.. الصبر الذي يكون لله، وعلى عبادة الله. وما أحوج الإنسان القائد الذي ينتظر منه تحرير الأمة من أسر الشهوة، والانحراف، أن يتحرر من داخله، وأن يخرج عن أسر الكسل إلى دائرة النشاط، وقيود الشهوة إلى دائرة القدرة، والإرادة، والتجاوز[2].

2- السابق .

رابعاً : تذكير المسلمين والمسلمات بفضائل التلاوة والذكر والدعاء وحضور مجالس العلم وأهميتها من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وما ورد عن السلف وغيرهم من الصالحين من حرصهم واجتهادهم في التعبد لله تعالى بها ،مما يدعونا إلى إنزالها المنزلة اللائقة بها وملازمتها في كل لحظة من العمر إذ الفائز الحقيقي هو الذي يغتنم ساعات عمره في هذه العبادات والخسارة الحقيقة في فواتها أو إهمالها أو التشاغل عنها.

***   ***   ***

خامساً : إبراز دور التلاوة والذكر والدعاء وطلب العلم في تزكية النفس وإظهار فوائدها ، وأنها السبب المباشر في تحسين الأخلاق ، لأنه من الملاحظ أن بعض الناس لا يكاد يدرك دور هذه العبادات في هذا الجانب في حياته، بل هناك فصل تام بين السلوك اليومي والشعائر التعبدية.

وقد أشار العلامة الساحلي رحمه الله إلى هذا المعنى بقوله (وكل ذكر من هذه الأذكار، له كيفيات مختلفات، لكل كيفية منها اختصاص بنوع من التحلية والتزكية، ولها أيضًا تركيبات، كل تركيب منها له اختصاص بنوع من التحلية والتزكية فيما تركب مِن علل النفس) [3].

سادساً : لفت انتباه المسلمين والمسلمات إلى أهمية الذكر والدعاء في الوصول إلى حل المشكلات وإزالة الهموم والغموم ،كما أنه السبب المباشر في الراحة النفسية والطمأنينة القلبية - كيف لا والذاكر في معية الله تعالى - وهي في الجملة السبب الرئيس في السعادة في الدنيا والسعادة في الآخرة.

سابعاً : لفت الانتباه إلى أن هذه الأذكار تأخذ حيزا كبيرا في حياتنا ومن أوقاتنا لأنه لا بد للعبد من أداء الصلوات وأذكار الصباح والمساء وأذكار الأحوال – أو المناسبات – وهذه إن لم يؤدّها العبد على وجهها الصحيح لم يستفد منها الفائدة المرجوة ، ومن الغُبن أن يقوم الإنسان بمجهود في عمل كبير ما ويمضي فيه وقتا طويلا ثم لا يجني ثمراته .

فمن المتفق عليه أنه لا يصح في دنيا الناس أن يقول أحدهم شاركت في دورة قيّمة لمدة شهرين في كل يوم أربع ساعات فاستفاد فلان وفلان ممن حضروا معي ، و أنا لم أستفد شيئا .. سيقال له : إذن الخلل منك وفيك ، وهكذا يقال لمن يتلو ويذكر ثم لا يعقل ولا يستفيد ولا يزكو.

3- بغية السالك إلى أشرف المسالك –للساحلي - ص (53) .

وبناءً على هذه الأسباب كتبت هذا السلسلة التي أرجو أن أكون قد وُفّقت في طرحها معنى وأسلوباً ، (**إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**) سورة هود (88) .

*** *** ***

المقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِلَهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَقَيُّومُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرَضِينَ وَمَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ الَّذِي لَا فَوْزَ إِلَّا فِي طَاعَتِهِ، وَلَا عِزَّ إِلَّا فِي التَّذَلُّلِ لِعَظَمَتِهِ، وَلَا غِنًى إِلَّا فِي الِافْتِقَارِ إِلَى رَحْمَتِهِ، وَلَا هُدًى إِلَّا فِي الِاسْتِهْدَاءِ بِنُورِهِ، وَلَا حَيَاةَ إِلَّا فِي رِضَاهُ، وَلَا نَعِيمَ إِلَّا فِي قُرْبِهِ، وَلَا صَلَاحَ لِلْقَلْبِ وَلَا فَلَاحَ إِلَّا فِي الْإِخْلَاصِ لَهُ وَتَوْحِيدِ حُبِّهِ، الَّذِي إِذَا أُطِيعَ شَكَرَ، وَإِذَا عُصِيَ تَابَ وَغَفَرَ، وَإِذَا دُعِيَ أَجَابَ.

وأشهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ، كَمَا لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَلَا شَبِيهَ لَهُ فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَمِينُهُ عَلَى وَحْيِهِ، وَخِيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَسَفِيرُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، الْمَبْعُوثُ بِالدِّينِ الْقَوِيمِ وَالْمَنْهَجِ الْمُسْتَقِيمِ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَإِمَامًا لِلْمُتَّقِينَ، وَحُجَّةً عَلَى الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ [4]، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأطهار وعلى صحبه الكرام وعلى التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : فهذه هي الرسالة الأولى من هذه السلسلة المباركة إن شاء الله تعالى ، ولا يخفى على القارئ الكريم أن العلم الذي يجب على كل مسلم تحصيله هو **معرفة الله** تعالى ولذلك بين العلماء أنَّ أوَّل خطوة على العبد أن يتخذها في الطريق إلى سعادة الدنيا والآخرة هي **معرفة الله** سبحانه وتعالى، لأنها المقصد الأسمى للإنسان في الحيـاة ، قال تعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم (**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ**) سورة محمد (19) ، وقد ترجم الإمام البخاري في صحيحه بابًا بعنوان (العلم قبل القول والعمل) .. وهذا العلم هو **معرفة الله** عزَّ وجلَّ ، ومحله هو القلب .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : والفطرة فطرتان:

فطرة تتعلق بالقلب : وهي معرفة الله ومحبته و إيثاره على ما سواه .

وفطرة عملية : وهي هذه الخصال - أي: سُنن الفطرة -، فالأولى: تزكي الروح وتطهر القلب، والثانية: تطهر البدن وكل منهما تمد الأخرى وتقويها [5].

4- من مقدمة زاد المعاد في هدي خير العباد – لابن القيم - باختصار.

5- تحفة المودود بأحكام المولود– لابن القيم - (112) ، نقلا عن موقع الكلم الطيب .

ومن عرف الله حق المعرفة، فقد وجبت له سعادة الدنيا والآخرة.

وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى : خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، قالوا: وما هو يا أبا يحيى؟، قال: معرفة الله تعالى[6].

وهذه هي المعرفة التي أحببنا بيانها في هذه الرسالة - بإذن الله تعالى – لأنها تؤدي إلى أن يمتلئ قلب المسلم بمحبة الله تعالى واعترافا بنعمه وأفضاله وطمعا في رحمته ، كما تملأ القلب إجلالا لله تعالى وخوفا من عذابه ،ومن ثَمَّ ينشط لطاعته والابتعاد عن معصيته ومراقبته في علانيته وسره .

وقد بحثت في هذه الرسالة : الطرق الموصلة إلى معرفة الله تعالى وأثر تلك المعرفة على قلب المسلم وعلامة العارف بالله تعالى وصفات القلب الموصول بالله ؛ بشئ من الإيجاز مع حصول الفائدة إن شاء الله تعالى .

اللَّهُمَّ هَذَا مَكَانُ الْمُسْتَغِيثِ الْمُسْتَجِيرِ مَكَانُ الْبَائِسِ الْفَقِيرِ، مَكَانُ مَنْ يَبُوءُ بِالْخَطِيئَةِ، وَيَعْتَرِفُ بِذَنْبِهِ، وَيَتُوبُ إِلَى رَبِّهِ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَرَى مَكَانِي ، وَتَسْمَعُ كَلَامِي ، وَتَسْمَعُ سِرِّي وَعَلَانِيَتِي، وَلَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِي، فَأَسْأَلُكَ أَنْ تَغْفِرَلِي جَمِيعَ مَا مَضَى فِي عِلْمِكَ مِنْ ذُنُوبِي، وَمَا شَهِدَتْ عَلَيْهِ حَفَظَتُكَ، وَأَنْ تَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِي وعن جميع المسلمين والمسلمات فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ .

اللهم إني أسأل أن تنفعني بهذه الرسالة وأن تجعلها خالصةً لوجهه الكريم وأن تكون سبباً في مغفرة ذنبي ورفع درجتي في الجنة وأن تفعل ذلك بالقارئ الكريم والقارئة الكريمة وجزى الله خيراً كل مَنْ قرأها وساهم في نشرها .

راجي رحمة ربه ذي المِنَنْ

أخوكم : أحمد خضر حسنين الحسن

15/ ربيع الأول / 1442 - المو افق 2/نوفمبر/2020

6- حلية الأولياء – لأبي نعيم الأصفهاني - (1,373)

تمهيد

هل يوجد مسلم لا يعرف الله تعالى ؟

لكي أجيب عن هذا السؤال سأبدأ الحديث عن معرفة الله بأسلوب غير معهود فأقول ومن الله أرجو السداد والقبول :

لو أنك دخلت زائرا لأحد أصدقائك فوجدت عنده ضيفاً لا تعرفه ولم تره من قبل ،، سلمت عليهما وأخذت مجلسك ثم بدأت تتحدث بتلقائية مع صديقك وتتناول مختلف الموضوعات ،، وربما رفعت صوتك بالضحك ، وفجأة التفت إليك صديقك مشيرا إلى **الضيف** قائلا أُعرِّفك بالدكتور فلان ،، طبيب درس في أوروبا طب الأعصاب ،، وعالج عشرات الحالات وكتب الله الشفاء على يديه ،أظنك الآن ستعتدل في جِلستك .

تابَعَ صديقُك قائلاً : وهو مع ذلك يحفظ القرآن الكريم كاملا ،، وله اهتمام بالتفسير والتدبر والفقه والحديث النبوي الشريف ،، لقد كبر الرجل في نظرك بلا شك ، فقد جمع بين الدين والدنيا .

ثم تابَعَ صديقُك قائلاً : وهو مع ذلك له جهود مقدَّرة في الدعوة إلى الله ،، وقد أسلم على يديه العشرات في أوروبا ،، **لا أشك أنك ستلوم نفسك على عدم إنزالك للرجل منزلته** ،، ولكنك تلتمس لنفسك العذر أنك كنت جاهلا بقدره .

*** *** ***

إذن المعرفة هي سبب أساس في حسن التعامل والأدب مع البشر،، فكذلك الحال في أدب العبد مع ربه يكون على قدر معرفته به ولذا قال الله تعالى **(وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)** (الذاريات - 56) ، فقد ورد عن مجاهد رحمه الله تعالى أنَّ معنى **(إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)** إلا ليعرفوني .

علق الثعلبي قائلا: وهذا حسن لأنه لو لم يخلقهم لم يُعرف وجوده وتوحيده ، دليله : قوله تعالى **:(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُۖفَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)** (الزخرف - 87) .

ومعنى العبادة في اللغة العربية قبل حدوثِ المصطلحات الشرعية دقيق الدلالة ، وكلمات أئمة اللغة فيه خفية والذي يُستخلص منها أنها **إظهار الخضوع للمعبود واعتقاد أنه يملك نفع العابد وضُرّه مِلكاً ذاتياً مستمراً** ، فالمعبود إله للعابد كما حكى الله قول فرعون **(فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ**

مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ) [المؤمنون : 47] [7].

والآن نريد أن ننظر في معرفة بعض المسلمين بالله تعالى – بالنظر إلى المثال المذكور – فهل كان احترامك للضيف الدكتور سيزداد لو أن صديقك اكتفى بذكر اسمه لك دون تلك المعلومات التي أمدك بها – لا أظن – وهكذا كثير من المسلمين يعرفون اسم (الله) وبعض أسمائه الحسنى ، ولكن هذه المعرفة - بالله تعالى – لم ترتقِ إلى درجة تحملهم على تعظيمه تعالى بقلوبهم بحيث يتأدبون معه تعالى الأدب الذي يستحقه فيحسبون لأمره ألف حساب في حركاتهم وسكناتهم .

قال تعالى (**إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ**) سورة الحاقة (33) نفى عنه الإيمان بالله العظيم لا الإيمان بالله فقط[8]. **(أي قد يؤمن بالله لكن لا يؤمن بعظمته ، وهذا هو سبب التفلُّت عن طاعته والوقوع في معصيته) .**

*** *** ***

وثمة ناحية أخرى في المعرفة بالله تعالى وليسمح لي القارئ الكريم بضرب مثل أيضا : لو سئل ثلاثة أشخاص عن الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى، **فأجاب الأول :** سمعت أنه أحد أئمة الفقه الإسلامي (وربما لا يعرف في أي قرن عاش).

وأجاب الثاني : قرأت له كتاب الموطأ فقط ولم أواصل دراسة مذهبه الفقهي .

وأجاب الثالث : أنا منذ ثلاثين سنة لا يمر علي يوم إلا وأقرأ فيه شيئا في مذهبه الفقهي وقد درست سيرته الذاتية ودرست انتشار مذهبه وعرفت كثيرا من أئمة المذهب المالكي .

أقول هذا بشر وتفاوت هؤلاء الأشخاص في معرفته فمن باب أولى أن يحصل التفاوت في المعرفة بالله تعالى في المعرفتين العقلية والقلبية .

ومنشأ هذا التفاوت مبني على حسب ما يعرفه المسلم من أسماء الله تعالى ، لأنها تتفاوت في معانيها ، إذ كل اسم منها يعطي معرفة بالله تعالى تختلف عن المعرفة بالاسم الآخر – فمثلا – معرفة معنى اسم الله الحي تختلف عن معرفة معنى اسمه تعالى الكريم، وهكذا.

كما أن لكل مسلم معاملة خاصة بينه وبين ربه يدل على ذلك ما يجده من ثمرات طاعته أو صبر

7/ تفسير الطاهر ابن عاشور للآية .

8/ موسوعة النابلسي الإسلامية .

على البلاء أو وقوع مصائب عليه بسبب مخالفته .

كما أن المسلمين يختلفون في اهتمامهم بالتأمل في أفعال الله تعالى في الأنفس والآفاق بل تفاوتهم في تدبر الآيات القرآنية الكونية أشد.

*** *** ***

تلك بعض أسباب تفاوت الخلق في معرفة الخالق جل وعلا ومن هنا فإن الله تعالى لا حصر لأسمائه ،ولهذا قال أعرف الخلق بالخالق نبينا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : (ما أصاب أحدًا قطُّ همٌّ ولا حَزَنٌ فقال اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي) [9].

قال العلماء في شرحه [10] : هذا الحديث يدلّ على أن أسماءه تعالى الحسنى غير محصورة في عدد معين، فجعل أسماءه تعالى ثلاثة أقسام:

قسم : سمَّى به نفسه، فأظهره لمن شاء من أنبيائه ورسله، وملائكته أو غيرهم، ولم يُنزله في كتابه.

وقسم : أنزله في كتابه، فتعرَّف به إلى عباده. وهذا القسم في مقدور كل أحد أن يعرفه بطلبه في كتاب الله تعالى، ويندرج تحته الأسماء الحسنى في السنة الصحيحة .

وقسم : استأثر به في علم الغيب عنده لا يطّلع عليه أحد، فتضمّن هذا الدعاء المبارك التوسّل إليه تعالى بأسمائه الحسنى كلّها، ما علم العبد منها، وما لم يعلم.

والعلم بأسماء اللَّه وصفاته أصل لكل العلوم؛ لأنه كُلَّما كان عظيم العلم والمعرفة باللَّه تعالى وأسمائه وصفاته زادت خشية العبد لربه، وعظمت مراقبته وعبوديته له جلّ وعلا، وازداد بُعداً عن الوقوع في سخطه ومعصيته. ولهذا كان أعظم ما يطرد الهمّ والحزن والغمّ أن يعرف

9/ أخرجه أحمد، 6/ 247، برقم 3712، ورقم 4318، والحاكم، 509/1، والطبراني في المعجم الكبير، 9/ 13، والبزار، 5/ 363، وابن أبي شيبة، 10/ 253، وحسنه الحافظ ابن حجر في تخريج الأذكار، وصححه الألباني في تخريج أحاديث الكلم الطيب، ص73. (موقع الكلم الطيب) .

10/ شرح الدعاء من الكتاب والسنة – موقع الكلم الطيب .

العبد ربه بأسمائه وصفاته، وأن يعمر قلبه بذكرها، والثناء بها عليه واستحضار معانيها.

فبعد أن قدَّم - صلى الله عليه وسلم - جملاً من الإقرار بالتذلل والخضوع له تعالى، والإيمان بكمال حكمه وقضائه وعدله، وهو توسل إليه بعمله الصالح، وتوسل إليه كذلك بأفعاله، ثم توسل إليه بجميع أسمائه الحسنى وصفاته العُلا، فجمع ثلاثة أنواع من التوسّلات الجليلة مقدمة بين يدي دعائه دلالة على أهمية هذه الوسائل في إعطاء ما يسأله العبد ربه عز وجل فقال: (**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي**): أي: فرح قلبي، وسروره، وخُصَّ (**الربيع**) دون فصول السنة؛ لأن الإنسان يرتاح قلبه في الربيع من الزمان، ويميل إليه ويخرج من الهمّ والغمّ، ويحصل له النشاط والسرور والابتهاج.

من الو اقع الذي يدلل على ضرورة بذل المجهود في سبيل المعرفة بالله جل وعلا أنَّ الطالب الذي يريد دراسة الطب يحتاج نحواً من تسع سنوات - ابتداءاً من الثانوية - وذلك ليصل إلى معرفة أسرار الجسم البشري وهو مخلوق من مخلوقات الله تعالى فكم نحتاج من الوقت والجهد - يا تُرى - إلى أن نتعرف على الله تعالى الخالق لكل ذرة من ذرات الكون .

*** *** ***

المقصود أنَّ الوصول إلى معرفة اسم من أسماء الله تعالى يحتاج منا إلى بذل الوقت والجهد وذلك لغلاء هذه المعرفة وأهميتها في زيادة الإيمان والتقرب إلى الله تعالى وقد قال صلى الله عليه وسلم (تعرَّف إلى الله في الرخاء يَعْرِفْك في الشدة) [11] .

قال ابن رجب رحمه الله – في شرحه : "معرفة العبد لربه نوعان :

أحدُهما: المعرفةُ العامة : وهي معرفةُ الإقرار به والتَّصديق والإيمان، وهذه عامةٌ للمؤمنين.

والثاني: معرفة خاصة : تقتضي ميلَ القلب إلى الله بالكلية، والانقطاعَ إليه، والأُنس به، والطمأنينة بذكره، والحياء منه، والهيبة له، وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون.

كما قال بعضهم : مساكينُ أهلُ الدُّنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيبَ ما فيها، قيل له: وما هو ؟ قال: معرفةُ الله عز وجل.

11/ رواه الترمذي والحاكم، قال الحاكم: صحيح، و أقره الذهبي، وقال الألباني (حسن) حديث 6290 في صحيح الجامع.

وقال أحمدُ بنُ عاصم الأنطاكيُّ : أحبُّ أنْ لا أموتَ حتّى أعرفَ مولاي ، وليست معرفته الإقرار به ولكن إذا عرفته استحييت منه [12] .

إن العبد إذا عرف الله جل وعلا عظّمه حق تعظيمه، لأن هذه المعرفة تجعله يعبد الله وهو يعلم من هو الله الذي يعبده ويتقرب إليه، بخلاف الذي يعبد الله وهو لا يعرفه حق المعرفة فإن عبادته لربه ستكون عبادة ضعيفة باهتة.

فالذي يعرفه سيعبده بإجلال وخضوع ووقار وخشوع .وكلما زادت عظمة الله في قلبه كلما ازداد شوقاً له، وحباً لعبادته، والتقرب إليه، لأنه يعلم أنه يتقرب إلى رب عظيم كريم، بيده مقاليد السموات والأرض، وعنده مفاتيح كل شيء، وكل شيء تحت أمره وقهره وتصرفه سبحانه، (**فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**) [يس : 83].

ومن هنا ندرك السرفي كثرة عبادة السلف لربهم، وتضحيتهم من أجله، وبذلهم للغالي والرخيص في سبيله، لأنهم عرفوا الله معرفة أجبرتهم على إخلاص العبادة له فضحوا في سبيله بكل شوق ومحبة، أما نحن اليوم فسبب بعدنا عن ربنا هو أننا ما عرفناه حقاً، فتقاعسنا عن عبادته، وتركنا أوامره، وارتكبنا المعاصي، وفعلنا المخالفات، وضيعنا العبادات، كل هذا لأن قلوبنا ما عرفت الله حق معرفته، وإلا فهل يُعقَل أن يكذب الإنسان أو يزني أو يسرق أو يأكل الحرام وهو يعرف ربه معرفة يقينية، ويعلم أن الرب -جل جلاله- يراه ويسمعه، ويطلع على جميع أحواله، ويعلم كل أسراره، كيف سيعصيه إذا كان يعرفه بهذه المعرفة [13].

ويصف أحد الباحثين هذا الو اقع الذي يعيشه بعض المسلمين قائلاً [14] :

واقع مخجل:

- **و اقع مخجل** أن تجد كثيرًا من الناس يعرفون عن كل شيء شيئًا، فإذا تعلق الأمر بالله ومعرفته، فوجئت أنهم لا يعرفون شيئًا!

- **و اقع مخجل** أن تجد الرجل يتحدث عدة لغات أجنبية بطلاقة، فإذا جاء إلى تلاوة آية من كتاب

12/ جامع العلوم والحكم – لابن رجب – شرح الحديث التاسع عشر.

13/ معرفة الله وخطورة الجهل به – موقع ملتقى الخطباء - بتصرف .

14 / مقتبس من مقال بعنون : لذة معرفة الله - د. شريف فوزي سلطان – شبكة الألوكة الشرعية .

الله فكأنه أجنبي!

• **و اقع مخجل** أن ترى الرجل عند الحديث عن السياسة محللًا بارعًا، وعند الحديث عن الكرة أو سوق العمل أو الموضة أو غيرها، تراه عالِمًا بالآراء مُفنِّدًا لها!

لكن لو طلبت منه أن يتكلم عن الله تعالى عدة دقائق، فلربما لا يستطيع، ولقد جرَّبتُ ذلك كثيرًا، وسألت كثيرًا منهم: ماذا تعرف عن اسم الله الصمد؟ أو القُدُّوس؟ أو المُقِيت؟ أو المَجيد؟ أو الحَكَم؟ فالجواب: لا جواب! إذًا كيف تعبدُ الله و أنت لا تعرفه؟! فأول الفتوح معرفة الله.

***   ***   ***

المبحث الأول

الطرق الموصلة إلى معرفة الله تعالى

مدخل : لا يعرف الله إلا الله .

المطلب الأول : تدبر القرآن الكريم أعظم طريق يعرّفك بالله تعالى .

المطلب الثاني : التفكر في آيات الله تعالى الكونية (الأنفس والآفاق) .

المحور الأول : التفكر في آيات الله تعالى في الأنفس .

المحور الثاني : التفكر في آيات الله تعالى في الآفاق .

المثال الأول : هداية الهدهد وعجائب صنع الله فيه .

المثال الثاني : هداية النمل وعجائب صنع الله فيه .

المثال الثالث : حاسة الشم لدى الحيوانات .

المطلب الثالث : التفكر في آثار الأسماء الحسنى .

مدخل

لا يعرف الله إلا الله

قال العلماء : لا يعرف الله إلا الله - سبحانه وتعالى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (**اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**) رواه مسلم .

قال النووي رحمه الله تعالى [15]: وَقَوْلُهُ : (**أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**) اعْتِرَافٌ بِالْعَجْزِ عَنْ تَفْصِيلِ الثَّنَاءِ ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى بُلُوغِ حَقِيقَتِهِ ، وَرَدٌّ لِلثَّنَاءِ إِلَى الْجُمْلَةِ دُونَ التَّفْصِيلِ وَالْإِحْصَارِ وَالتَّعْيِينِ ، فَوَكَّلَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا ، وَكَمَا أَنَّهُ لَا نِهَايَةَ لِصِفَاتِهِ لَا نِهَايَةَ لِلثَّنَاءِ عَلَيْهِ لِأَنَّ الثَّنَاءَ تَابِعٌ لِلْمُثْنَى عَلَيْهِ ، وَكُلُّ ثَنَاءٍ أَثْنَى بِهِ عَلَيْهِ وَإِنْ كَثُرَ وَطَالَ وَبُولِغَ فِيهِ فَقَدْرُ اللَّهِ أَعْظَمُ ، وَسُلْطَانُهُ أَعَزُّ ، وَصِفَاتُهُ أَكْبَرُ وَأَكْثَرُ ، وَفَضْلُهُ وَإِحْسَانُهُ أَوْسَعُ وَأَسْبَغُ .

ثم نقل – النووي - قول مالك رحمه الله تعالى : مَعْنَاهُ لَا أُحْصِي نِعْمَتَكَ وَإِحْسَانَكَ وَالثَّنَاءَ بِهَا عَلَيْكَ وَإِنْ اجْتَهَدْتُ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْكَ .

قلت : ومع ذلك فقد أتاح لنا - سبحانه - جزءًا من المعلومات عنه بدرجة تتحملها عقولنا من خلال ما أخبرنا به من أسمائه وصفاته، والتي أودع مظاهرها وآثارها في مخلوقاته، وبقدر تتبع هذه الآثار وربطها بأسمائه وصفاته تكون المعرفة ، **فقال تعالى** : (**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**) سورة آل عمران (190-191).

قال الدكتور محمد راتب النابلسي وفقه الله تعالى : أي المؤمنون من شأنهم التفكر في خلق السماوات و الأرض، لازمة من لوازمهم، خصيصة من خصائصهم، سمة من سماتهم.

ثم قال : واللهِ مرة قرأت مقالة في مجلة علمية عن الدماغ، تزيد هذه المقالة عن ثمانين صفحة، واللهِ شعرت بوجع في رأسي، لأن أسرار الدماغ فوق طاقة الدماغ، فربنا عز وجل أودع في الإنسان

15/ شرح صحيح مسلم – للنووي - (موقع جامع السنة وشروحها) .

هذا الفكر، و إن شئت سمه عقلا، على كل حال الخلاف لفظي لا قيمة له، أودع فينا هذا الفكر ليكون أداة معرفة الله.

أوضح مثلٍ : لو فرضنا عندنا شمعة على الطاولة وإلى جانبها عود ثقاب، و الغرفة مظلمة، و هناك على الطاولة قطع من الأحجار، و قطعة من الألماس، ثمن هذه القطعة مئات الألوف، بل ملايين، انتبه ماذا سيحصل، إنك إن أمسكت عود الثقاب وأشعلت هذه الشمعة تنور المكان، فرأيت الألماس فرحت فرحا عظيما، فتحركت نحوه فالتقطته، فسعدت به، هذا الترتيب الطبيعي، قال: التفكر يحتاج إلى تذكر، والتفكر يوصل إلى العلم، و العلم يوصل إلى الحال، أي انفعال، و الانفعال يولد العمل، و العمل ثمن الجنة، البداية التفكر[16]. اهـ

وعليه فهناك طرق يتوصل بها الإنسان إلى معرفة الله تعالى والإيمان بوحدانيته وقدرته وتدبيره للكون وهي مبثوثة في القرآن الكريم ، وكل طريق منها لا يمكن لبشر أن يحيط به إحاطة تامة ، ولكن كلٌّ بحسب ما أُعطي من القدرات والمواهب.

ولأنها كثيرة أحببت أن أشير إلى أشهرها وهي ثلاثة : تدبر القرآن الكريم وهي أعظم طريق يعرف بالله تعالى.والتفكر في آيات الله في مخلوقاته (الأنفس والآفاق) والتفكر في آثار الأسماء الحسنى وسأشير إليها باختصار في ثلاثة مطالب :

16- موضوعات في التربية - الدرس : 040 - إحياء علوم الدين1 - التفكر أفضل العبادات – موسوعة النابلسي .

المطلب الأول

تدبر القرآن الكريم أعظم طريق يعرف بالله تعالى

إن تدبر القرآن الكريم، والإكثار من تلاوته، والتمعن في آياته، والوقوف عند معانيه، يورث في القلب هيبة الله، وتعظيمه، ومعرفته، ومحبته جل جلاله، ولن ترسخ هذه المعاني في قلب الإنسان وعقله إلا إذا أكثر من التلاوة، والتدبر، وعاش مع القرآن وتفاعل معه تفاعلاً حقيقياً بكل مشاعره وأحاسيسه، فيتعرف على ربه ومولاه من خلال كلامه وآياته العظيمة، يقول ربنا جل جلاله : (**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**) [الزمر : 23] ويقول: (**بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ**) [العنكبوت : 49].

فالقرآن أعظم معرّف بالله -سبحانه وتعالى- فمن أراد أن يعرف ربه حق المعرفة فعليه بالقرآن، ومن أراد أن يتقي الله حق التقوى فعليه بالقرآن، ومن أراد أن يعظمه حق التعظيم والإجلال فعليه بالقرآن، فإن ثلث القرآن يتكلم عن الله -سبحانه- وتوحيده، وعظمته، وأسمائه وصفاته، بل إن كثيراً من آيات القرآن الكريم تجدها قد ختمت باسم من أسماء الله الحسنى أو صفة من صفاته العلى، وقل أن تجد آية في القرآن الكريم لا يذكر فيها لفظ الجلالة **(الله)** أو اسم آخر من أسمائه -جل جلاله-.

قال ابن قيم الجوزية - رحمه الله - [17]**: القرآن كلام الله، وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلى في صفات الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق وتنكسر النفوس وتخشع الأصوات ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء.**

وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال : وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال الدال على كمال الذات، فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها بقدر ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغا إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء كما قيل:

يراد من القلب نسيانكم   وتأبى الطباع على الناقل

17- الفوائد – لابن القيم – (نقلا عن إسلام ويب) .

فتبقى المحبة له طبعا لا تكلفا.

وإذا تجلى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان : انبعثت قوة الرجاء من العبد و انبسط أمله وقوي طمعه وسار إلى ربه وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره، وكلما قوي الرجاء جد في العمل كما أن الباذر كلما قوي طمعه في المحصول حرث أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه قصر في البذر.

وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة : انقمعت النفس الأمارة وبطلت، أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات، وانقبضت أعنة رعوناتها فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر.

وإذا تجلى بصفات الأمر والنهي والعهد والوصية وإرسال الرسل و إنزال الكتب شرع الشرائع: انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره والتبليغ لها والتواصي بها وذكرها وتذكرها، والتصديق بالخبر والامتثال للطلب والاجتناب للنهي.

وإذا تجلى بصفة السمع والبصر والعلم : انبعث من العبد قوة الحياء فيستحي من ربه أن يراه على ما يكره، أو يسمع منه ما يكره، أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه فتبقى حركاته و أقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع غير مهملة ولا مرسله تحت حكم الطبيعة والهوى.

وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد وسوق أرزاقهم إليهم ودفع المصائب عنهم ونصره لأوليائه وحمايته لهم ومعيته الخاصة لهم : انبعثت من العبد قوة التوكل عليه والتفويض إليه والرضا به، وما في كل ما يجريه على عبده ويقيمه مما يرضى به هو سبحانه والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده وثقته به ورضاه بما يفعله به ويختاره له.

وإذا تجلى بصفات العز والكبرياء : أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته والانكسار لعزته والخضوع لكبريائه وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته ويذهب طيشه وقوته وحدته.

*** *** ***

وجماع ذلك أنه سبحانه يتعرف إلي العبد بصفات إلهيته تارة، وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهود صفات الإلهية المحبة الخاصة والشوق إلى لقائه والأنس والفرح به والسرور بخدمته والمنافسة في قربه والتودد إليه بطاعته واللهج بذكره والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دون ما سواه، ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه والافتقار إليه والاستعانة به والذل والخضوع والانكسار له.

وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في إلهيته، وإلهيته في ربوبيته، وحمده في ملكه، وعزه في عفوه، وحكمته في قضائه وقدره، ونعمته في بلائه وعطاءه في منعه وبره، ولطفه وإحسانه ورحمته في قيوميته، وعدله في انتقامه، وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه، ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه، وعزه في رضاه وغضبه، وحلمه في إمهاله، وكرمه في إقباله، وغناه في إعراضه.

وقال الغزالي رحمه الله :(سِرُّ القرآن، ولُبَابُه الأصفى، ومقصدُهُ الأقصى، دعوَةُ العباد إلى الجَبَّار الأعلى، ربِّ الآخرةِ والأولى، خالق السماوات العُلَى، والأَرَضين السُفلى، وما بينهما وما تحت الثَّرَى)[18].

وقال الدكتور محمد النابلسي : أنا أتمنى أن نقرأ القرآن الكريم قراءتين؛ قراءة تعبُّد وقراءة تدبُّر، التعبُّد تقرأ كل يوم جزءاً، وهذا جيد جداً أن يختم المسلم القرآن الكريم خلال الشهر، ولكن أن يقرأ جز أين بختمتين، أو ثلاث ختمات، هذه قراءة تعبد، أما التدبر فلو أمضيت بالآية الواحدة ثلاثة أيام لا يوجد مانع، التدبر أن تفهم أبعاد هذه الآية، مدلولاتها، ثمارها .

*** *** ***

18 - جواهر القرآن ودرره – للغزالي – ص (23) .

المطلب الثاني

التفكر في آيات الله تعالى الكونية (الأنفس والآفاق)

يدور الكلام في هذا المطلب حول معرفة الله تعالى من خلال تفكر الإنسان في نفسه .. كيف خلقها تعالى وأودع فيها من الأسرار ما أودع، سواء من ناحية خِلْقتها الظاهرة أو صفاتها الباطنة ، كما يتطرق الكلام إلى التفكر فيما حولنا من هذا الكون الواسع (الآفاق) وما فيه من العجائب المبهرة ، وذلك - باختصار - في محورين :

المحور الأول : التفكر في آيات الله تعالى في الأنفس - وهي كثيرة - وذلك بملاحظة مظاهر قدرة الله وعظمته وعلمه المحيط بكل ذرة في النفس الإنسانية ، ولكن سأكتفي بالإشارة إلى آيتين :

الآية الأولى : قوله تعالى : (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) سورة الذاريات (21) :

قبل ذكر كلام المفسرين أسرد لك - أخي القارئ الكريم والقارئة الكريمة - قصة إسلام نُعيم بن مسعود: هذا رجل كان في الجاهلية خليل متعة وشراب، غارق في الشراب؛ أي شراب الخمر وغارق في متعة النساء, وهو من غطفان، فلما بلغته دعوة النبي عليه الصلاة والسلام ، شعر أن هذه الدعوة تحد من شهواته ، وتحرمه من ملذاته ، فحاربها أشد المحاربة، فلما كانت معركة الخندق ، لأنه أحد وجهاء غطفان ، وغطفان توجهت لمحاربة النبي صلى الله عليه وسلم لا يستطيع إلا أن يخرج، فخرج مع قبيلته للحرب .

وفي ذات ليلة من ليالي الحصار الذي دام قريبا من عشرين يوم لجأ الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى ربه, وجعل يدعوه دعاء المضطر ويكرر في دعائه قوله: (اللّهُمَّ إني أَنْشُدُك عَهدَك ووعْدَك .. اللُّهُمَّ إني أنْشُدُك عهدك ووعدك ..).

كان نُعَيمُ بنَ مسعود في تلك الليلةِ يَتَقلَّبُ على فراشه أرِقاً كأنما سُمِّرَ - ثُبتا بالمسامير- جَفناه فما يَنطبِقان لنومٍ, فجعل يَسْرَح ببصره وراءَ النجومِ السابحةِ على صفحة السماءِ الصافيةِ، ويطيلُ التفكير.

ويروي قصته بشكل مؤثر حيث قال رضي الله عنه : وَيحَكَ يا نُعَيمُ !! ما لذي جاءَ بك من تلك الأماكنِ البعيدة في نجد لحربِ هذا الرجل ومن معه ؟! إنَّك لا تُحارِبُهُ انتصاراً لِحقّ مسلوبٍ أو حَميَّةً لِعرضٍ مغصُوبٍ، وإنما جئتَ تحارِبهُ لغيرِ سببٍ معروفٍ .. أيليقُ برجلٍ له عقلٌ مثلُ عقلك أن يقاتلَ

فيقتُل أو يُقتَل لِغيرِ سببٍ ؟!

وَيحَكَ يا نُعَيمُ .. ما الذي يجعلك تُشهِرُ سيفَك في وجه هذا الرجلِ الصالح الذي يأمر أتباعه بالعدل والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُربى ؟!!

وما الذي يَحملُك على أنْ تغمِسَ رُمحك في دماءِ أصحابِه الذين اتَّبعُوا ما جاءهُم بهِ من الهُدى والحَقّ ؟!!

ولم يَحْسِمْ هذا الحوارَ العنيفَ بَينَ نُعيمٍ ونفسِه إلا القرارُ الحازمُ الذي نَهَضَ من تَوّه - من لحظته - لتنفيذِه[19]. فجاء إلى النبي صلّ الله عليه وسلم ، وقال له يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم بي أحد من قومي ، فمرني أمرك ، فقال له رسول الله صلّ الله عليه وسلم (**إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا ما استطعت ، فإنما الحرب خدعة**) .

والآن إليك بعض ما تحمله الآية الكريمة من معان مهمة فوائد جليلة [20] :

1. **وَفِي أَنْفُسِكُمْ آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَصِدْقِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، فَإِنَّهُ خَلَقَهُمْ نُطْفَةً ثُمَّ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً ثُمَّ عَظْمًا إِلَى أَنْ يَنْفُخَ فِيهِ الرُّوحَ، ثُمَّ تَخْتَلِفُ بَعْدَ ذلك صورهم وألوانهم وطبائعهم وألسنتهم، ثم نقش خَلْقِهِمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الْعَجِيبَةِ الشَّأْنِ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ وَعَظْمٍ وَأَعْضَاءٍ وَحَوَاسَّ وَمَجَارِي وَمَنَافِسَ.**
2. **من آيات النفس الدالة على عظمة الله تعالى : القلوب وما ركز فيها من العقول ، وما خصت به من أنواع المعاني والفنون . وغيرذلك من الآيات الباطنة والظاهرة .**
3. **ومن آيات النفس الدالة على عظمة الله تعالى : الألسن والنطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح ، وتأتّيها لما خلقت له ، وما سوى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني ، فتبارك الله أحسن الخالقين .**
4. **ومن آيات النفس الدالة على عظمة الله تعالى : في حياتكم وموتكم ، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم ، وفي الهرم بعد الشباب ، والضعف بعد القوة ، والشيب بعد السواد .**
5. **قوله تعالى (وفي أنفسكم) كقوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) أي نريهم من هذه الدلائل مرة بعد أخرى إلى أن تزول الشبهات عن قلوبهم ، ويحصل فيها الجزم**

19- صورمن حياة الصحابة – للدكتورعبد الرحمن رأفت باشا .

20- ملخص من تفسير الرازي والقرطبي والشوكاني والسعدي .

والقطع بوجود الإله القادر الحكيم العليم المنزه عن المثل والضد .

6- **قوله تعالى : (أفلا تبصرون) يعني بصر القلب ، ليعرفوا كمال قدرته .** وتحتمل : أفلا تنظرون في ذلك فتتفكروا فيه ، فتعلموا حقيقة وحدانية خالقكم .

7- وهذا فقط هو الطريق الشرعي للاستدلال بالنفس على الله وعلى وحدانية ، وثمرته هو الشهادة على النفس بالعبودية والافتقار على الله في كل صغير وكبير ، والشهادة بأن الله واحد لا شريك له ، وهو رب العالمين وخالقهم.

*** *** ***

الآية الثانية : قوله تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) سورة الروم (30) فالآية تشير الاهتداء بما أودعه الله في الفطر السليمة من معرفة الله تعالى وتوحيده .

قال السعدي رحمه الله : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا) وهذا الأمر الذي أمرناك به هو **(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)** ووضع في عقولهم حسنها واستقباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم، الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق وهذا حقيقة الفطرة.

ومن خرج عن هذا الأصل فلعارض عرض لفطرته أفسدها كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتَجُ البَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ) متفق عليه .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى - في شفاء العليل - : **(ومما ينبغي أن يعلم أنه إذا قيل أنه ولد على الفطرة، أو على الإسلام، أو على هذه الملة، أو خلق حنيفا، فليس المراد به أنه حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده؛ فإن الله يقول: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا)** سورة النحل (78) **ولكن فطرته موجبة، مقتضية لدين الإسلام لقربه، ومحبته، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه، ومحبته، وإخلاص الدين له. وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئا بعد شيء، بحسب كمال الفطرة، إذا سلمت من المعارض) اهـ.**

وعليه يمكن أن نقول : إن الله تعالى خلق الناس على الفطرة السليمة التي تهديهم إلى الإيمان بوجود الله تعالى ، ووجوب توحيده ، والتضرع إليه والاستعانة والاستغاثة به،وهذا في حد ذاته آية أخرى

من آيات الله تعالى التي في الأنفس .

وقال رحمه الله تعالى - أيضاً - : أيُّ شيء عرَفَ من لم يعرف الله ورسله، وأيُّ حقيقة أدرك من فاتته هذه الحقيقة، وأيُّ علم أو عمل حصل لمن فاته العلم بالله والعمل بمرضاته ومعرفة الطريق الموصلة إليه، وماله بعد الوصول إليه .

***　　　***　　　***

فائدة : جاء في أثر مشهور: (مَنْ عرف نفسه عَرَفَ ربَّه)[21]

ولما كان لهذا الكلام أثره الكبير في معرفة الله تعالى عند تأمل الإنسان في نفسه ؛ اهتمَّ العلماء بشرحه وإليك بعض ما قيل فيه [22] :

قال أبو طالب المكي رحمه الله تعالى في " قوت القلوب " : معناه إذا عرفت صفات نفسك في معاملة الخلق و أنك تكره الاعتراض عليك في أفعالك وأن يعاب عليك ما تصنعه عرفت منها صفات خالقك ، و أنه يكره ذلك فارض بقضائه وعامله بما تحب أن تعامل به .

وقال السيوطي رحمه الله تعالى : وفي هذا الحديث تفسير آخر وهو أنك تعرف أن صفات نفسك على الضد من صفات ربك ، فمن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء ، ومن عرف نفسه بالجفاء والخطأ عرف ربه بالوفاء والعطاء ، ومن عرف نفسه كما هي عرف ربه كما هو .

ثم قال رحمه الله :

قُل لِمَن يَفهَمُ عَنّي ما أَقُولُ　　قَصِّرِ القَولَ فَذَا شَرحٌ يَطُولُ

ثمّ سِرٌّ غَامِضٌ مِن دُونِهِ　　قَصرت واللهِ أعنَاقُ الفُحولِ

أنتَ لا تَعرِفُ إيَّاكَ ولاَ تَدري　　مَن أنتَ وَلاَ كَيفَ الوُصُولُ

---

21 - قال السيوطي رحمه الله تعالى : إن هذا الحديث ليس بصحيح ، وقد سئل عنه النووي في فتاويه فقال : إنه ليس بثابت ، وقال ا بن تيمية : موضوع ، وقال الزركشي في الأحاديث المشتهرة : ذكر ابن السمعاني : إنه من كلام يحيى بن معاذ الرازي . (رسالة القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه - الحاوي للفتاوي) .

22- هذه الأقوال نقلا عن رسالة القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه ضمن كتاب الحاوي للفتاوي - للسيوطي - بتصرف .

لاَ وَلاَ تَدري صِفَات رُكِّبَت فِيكَ حَارَت فِي خَفَايَاها العُقُولُ

أَنتَ أكل الخُبزِ لاَ تَعرِفهُ كَيفَ يَجرِي مِنكَ أم كَيفَ تَبُول

أين مِنك الرُّوحُ فِي جَوهَرِهَا هَل تَرَاهَا فَتَرَى كَيفَ تجولُ

أينَ مِنكَ العَقلُ والفَهمُ إذَا غَلَبَ النَّومُ فَقُل لِي يَا جَهُولُ

فَإذَا كانَت طَوَايَاكَ الَّتِي بَينَ جَنبَيكَ كَذَا فِيهَا ضَلُولُ

*** *** ***

وقال ابن القيم رحمه الله في كتاب الفوائد :

من أعجب الْأَشْيَاء أَن تعرفه ثمَّ لَا تحبه وَأَن تسمع داعيه ثمَّ ، تتأخر عَن الْإِجَابَة وَأَن تعرف قدر الرِّبْح فِي مُعَامَلَته ثمَّ تعْمل غَيره وَأَن تعرف قدر غَضَبه ثمَّ تتعرّض لَهُ وَأَن تذوق ألم الوحشة فِي مَعْصِيَته ثمَّ لَا تطلب الْأنس بِطَاعَتِهِ وَأَن تذوق عصرة الْقلب عِنْد الْخَوْض فِي غير حَدِيثه والْحَدِيث عَنهُ ثمَّ لَا تشتاق إِلَى انْشِرَاح الصَّدْر بِذكرِهِ ومناجاته وَأَن تذوق الْعَذَاب عِنْد تعلق الْقلب بِغَيْرِهِ وَلَا تهرب مِنْهُ إِلَى نعيم الإقبال عَلَيْهِ والإنابة إِلَيْهِ وأعجب من هَذَا علمك أَنَّك لابد لَك مِنْهُ وَأَنَّك أحْوج شَيْء إِلَيْهِ وَأَنت عَنهُ معرض وَفِيمَا يبعدك عَنهُ رَاغِب .

*** *** ***

المحور الثاني : التفكر في آيات الله تعالى في الآفاق [23]:

والمقصود أن يتفكر الإنسان في المخلوقات التي من حوله في هذا الكون الواسع الفسيح ، وهي من الكثرة بحيث لا يمكن حصرها وقد أشار القرآن الكريم إلى كثير منها لبيان ذلك مجملا مرة ومفصلا أخرى [24]، بصورة تلفت نظر الإنسان إلى الاستدلال بها على قدرة الله تعالى وعظمته وذلك بإعمال

23- ملخص من تفسير الرازي والقرطبي إضافة إلى عن مقال معرفة الله تعالى مفهومها ، وطرقها ، وآثارها في الحياة – موقع وسطيون ، ومقال : من الطرق المؤدية إلى معرفة الله تعالى – موقع مداد (بتصرف) .

24- ومن أمثلتها :

1- ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ يونس(101) .

2- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة (164) .

3- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ العنكبوت (20) .

الفكر في إتقانها وجودتها ودلالتها على الخالق العظيم سبحانه وتعالى ، ولا يمكن الحديث عن عشر معشارها في مثل هذه الرسالة ، ولذا سنقف مع إحدى الآيات المجْمِلة. قال الله تعالى :(**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) .

وإليك بعض ما فيها من المعاني :

1- الْآفَاقِ احد الآفاق أفق وهو الناحية من نواحي الأرض ، وكذلك آفاق السماء ونواحيها وأطرافها .

2- أَنَّ الْمُرَادَ بِآيَاتِ الْآفَاقِ الْآيَاتُ الْفَلَكِيَّةُ وَالْكَوْكَبِيَّةُ وَآيَاتُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآيَاتُ الْأَضْوَاءِ وَالْإِضْلَالِ وَالظُّلُمَاتِ ، وقيل : الآفاق كالآيات التي في السماء وفي الأرض، وما يحدثه الله تعالى من الحوادث العظيمة، الدالة للمستبصر على الحق.

3- إذا أمعنّا النظر في هذا الكون الواسع الفسيح، لوجدنا أن كل شيء فيه لهو دليلٌ واضح على وجود الله وطريق إلى معرفته سبحانه، بشرط أن تتجاوز نظرتنا النظرة المادية الظاهرية للأشياء، وتليها نظرة ثاقبة وفاحصة تصل إلى بواطن الأشياء، إذ أن هناك فرقاً بين النظرة المادية السطحية التي تنظر إلى الطبيعة بما هي هي ولا تتخذها وسيلة إلى معرفة الله تعالى، وبين النظرة الإيمانية الثاقبة التي تتجاوز المعرفة الظاهرية للطبيعة وتصل إلى المعرفة الباطنية -أي معرفة المبدأ والخالق- ولو بصورة إجمالية، وذلك عن طريق الإمعان في النُظم والسنن الموجودة في هذا الكون، والدالة على وجود خالق لها.

4- وقيل : أَنَّ الْمُرَادَ بِآيَاتِ الْآفَاقِ فَتْحُ الْبِلَادِ ، فيسر الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء من بعده وأنصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموما ، وفي ناحية المغرب خصوصا من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم وإجرائه على أيديهم أمورا خارجة عن المعهود خارقة للعادات ،وَبِآيَاتِ أَنْفُسِهِمْ فَتْحُ مَكَّةَ.

*** *** ***

4- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ الروم(22) .

5- ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ الطارق(5) .

6- ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ الأعلى(17-20) .

7- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ﴾ آل عمران(190) .

إن طُرق معرفة الله ،من هذه الناحية، تكون بعدد الظواهر- التي يسميها البعض بالطبيعية بينما هي إعجازية -، ابتداءً من الذرة و انتهاءً بالمجرة، لذا فإننا نجد رجال الوحي ودعاة التوحيد يركزون في إرشاد الناس الى معرفة الله عزوجل على دعوة الناس إلى النظر في الكون والإمعان في النُظُم والسنن الموجودة فيه، وذلك بحسب الإرشادات القرآنية .

ومما يدخل في هذا التأمل : أن يتأمل العبد في أحوال بعض الكائنات الحية و أكتفي بذكر ثلاثة أمثلة :

المثال الأول : هداية الهدهد وعجائب صنع الله فيه[25] :

يحدثنا ابن القيم بأسلوبه السهل الأخاذ عن نوع آخر من مخلوقات الله التي لها في كتاب الله ذِكْر ، ألا وهو الهدهد ، متحدثاً عن هداية الله له فيقول :" **وهذا الهدهد من أهدى الحيوان و أبصره بمواضع الماء تحت الأرض ، لا يراه غيره ، ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أنه قال لنبي الله سليمان ، وقد فقده وتوعده ، فلما جاء بَدَره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة ، وخاطبه خطاباً هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه ، فقال : (أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ)** [النمل : 22] ، **وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به ، وهو خبر عظيم له شأن ، فلذلك قال : (وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ)** [النمل : 22] .

والنبأ هو الخبر الذي له شأن ، والنفوس متطلعة إلى معرفته ، ثم وصفه بأنه نبأ يقين ، لا شك فيه ولا ريب ، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت قلبَ المخبَرِ لتلقي الخبر ، وأوجبت له التشوق التام إلى سماعه ومعرفته ، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج .

ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكداً بأدلة التأكيد ، فقال : **(إنّي وجدت امرأةً تملكهم)** ،

ثم أخبر عن شأن تلك الملكة ، وأنها من أجلّ الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك ، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها الذي تجلس عليه ، وأنه عرش عظيم ، ثم أخبره بما يدعوه إلى قصدهم ، وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله ،فقال : **(وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ)** [النمل : 24] .

25- للدكتور عمر سليمان الأشقر – موقع معرفة الله .

وحذف أداة العطف من هذه الجملة ، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها ، إيذاناً بأنها هي المقصودة ، وما قبلها توطئة لها ، ثم أخبر عن المغوي لهم ، الحامل لهم على ذلك ، وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم ، حتى صدهم عن السبيل المستقيم ، وهو السجود لله وحده ، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له .

ثم ذكر من أفعاله – سبحانه – إخراج الخبء في السماوات والأرض ، وهو المخبوء فيهما من المطروالنبات والمعادن و أنواع ما ينزل من السماء ، وما يخرج من الأرض ، وفي ذكرالهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعاربما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض .

قلت : ويمكن أن يستفاد من صنيع الهدهد أن من أراد النجاح في دعوته فعليه أن يدعو بحسب تخصصه بقدر استطاعته في إيصال المعلومات فمثلا إذا خاطب الطبيب الأطباء - من غير المسلمين - وغيرهم بما في أعضاء الإنسان من دلائل قدرة الله تعالى وكذلك المهندس والفلكي ، كان ذلك أجدى لقبول كلامه والاستجابة لدعوته .

*** *** ***

المثال الثاني : هداية النمل وعجائب صنع الله فيه [26]:

يحدثنا ابن القيم رحمه الله تعالى عن نوع آخر من مخلوقات الله ، ويبين لنا هداية الله لها في معاشها فيقول :" وهذا النمل من أهدى الحيوانات ، وهدايتها من أعجب شيء ، فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها ، وإن بعدت عليها الطريق ، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها ، فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان .فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين ؛ لئلا ينبت فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة ، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يوماً ذا شمس فخرجت به ، فنشرته على أبواب بيوتها ، ثم أعادته إليها ، ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها .

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان عليه السلام كلامها وخطابها لأصحابها بقولها : (**يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ**

26- للدكتورعمر سليمان الأشقر – موقع معرفة الله .

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [النمل : 18] ، فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته ، ثم أتت بالاسم المبهم ، ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة العموم ، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر ، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول ، وهو خشية أن يصيبهم مضرّة الجيش ، فيحطمهم سليمان وجنوده ، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك ، وهذا من أعجب الهداية .

وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله : (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) [النمل : 17] [27]، ثم قال : (حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ) [النمل : 18] ، فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي ، ودل على أن ذلك الوادي معروفٌ بالنمل كوادي السباع ونحوه .

ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم ، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكناً لا يدخل عليهم فيه سواهم ، ثم قالت : (لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ)[28] فجمعت بين اسمه وعينه ، وعرفته بهما ، وعرفت جنوده وقائدهم ، ثم قالت : (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [النمل : 18] فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لومة أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم ، ويدخلوا مساكنهم ، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكاً من قولها ، وإنه لموضع تعجب وتبسم .

وقد روى الزهري عن بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما : (أَنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نهى

27- أثبت العلماء بعد دراسة طويلة لعالم النمل أن النمل من أكثر الحشرات تنظيماً، ولديه وسائل للتواصل عن بعد، وذلك من خلال إفراز مواد خاصة تنتشر رائحتها في كل اتجاه، وتميزها بقية النملات وتفهمها، ولذلك فقد حدثنا القرآن عن حقيقة علمية لم يكن أحد ليقتنع بها حتى زمن قريب، وهي حقيقة التواصل والكلام في عالم النمل. يقول تعالى في قصة سيدنا سليمان عندما خرج مع جنوده وصادف مرورهم بقرب وادي النمل: (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [النمل: 18].

ولقد كشف العلم الحديث عن بعض العجائب من سلوك النمل الذكي وتطور جهازها العصبي فعند دراسته تحت المجهر يظهر لنا أن دماغ النملة يتكون من فصين رئيسيين يشبه مخ الإنسان، ومن مراكز عصبية متطورة وخلايا حساسة .

ومن لطائف القرآن العددية : على الرغم من أن للنمل أكثر من 11 ألف نوع مختلف،فإنها جميعاً لها ثلاثة أنواع فقط وهي:

1- الملكات. 2- النملات العاملات. 3- النمل المذكر. والعجيب أن النمل ورد في القرآن ثلاث مرات فقط بعدد أنواع النمل .(أسرار الإعجاز العلمي - موقع مخصص لأبحاث ومقالات عبد الدائم الكحيل) .

28- اكتشف العلماء أن جسم النملة مغلف بغلاف صلب جداً قابل للتحطم، أي ليس له مرونة تجعله ينحني مثلاً، بل يتكسر كالزجاج، ولذلك جاء البيان الإلهي ليتحدث عن هذه الحقيقة بكلمة (يحطمنكم)، أليست هذه معجزة قرآنية؟.(أسرار الإعجاز العلمي - موقع مخصص لأبحاث ومقالات عبد الدائم الكحيل) .

عن قتلِ أربعٍ من الدوابِّ : النملةِ، والنحلةِ، والهدهدِ، والصّردِ) [29] .

*** *** ***

قال ابن القيم رحمه الله : ومن عجيب هداية النملة أنها تعرف ربها بأنه فوق سمواته على عرشه ، كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه ، قال : (خرج نبيٌّ من الأنبياء بالناس يَسْتَسْقُون ، فإذا هم بنملة رافعة قَوائِمها إلى السماء تدعو مُستلقية على ظهرها ، فقال : ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم) ولهذا الأثر عدة طرق ، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره .وفي مسند الإمام أحمد : (أن سليمان بن داود خرج يستسقي ، فرأى نملة مُستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقولُ : اللهم إنا خلق من خلقك ، ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك ، فإما أن تُسقينا وترزقنا ، وإما أن تهلكنا ، فقال : ارجعوا فقد سُقيتُمْ بدعوة غَيركم) .

ولقد حُدّثت أن نملة خرجت من بيتها ، فصادفت شق جرادة ، فحاولت أن تحمله فلم تطق ، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها ، قال : فرفعتُ ذلك من الأرض ، فطافت في مكانه فلم تجده ، فانصرفوا وتركوها .قال : فوضعته ، فعادت تحاول حمله فلم تقدر ، فذهبت ، وجاءت بهم ، فرفعته ، فطافت فلم تجده فانصرفوا ، قال : فعلت ذلك مراراً ، فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها ، وقطعوها عضواً عضواً ، قال شيخنا : وقد حكيت له هذه الحكاية فقال : هذا النمل فطرها الله – سبحانه – على قبح الكذب وعقوبة الكذاب .

*** *** ***

والنمل من أحرص الحيوانات ، ويضرب بحرصه المثل ، ويذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة ، وسألها : كم تأكل النملة من الطعام كل سنة ؟ فقالت : ثلاث حبات من الحنطة ، فأمر بإلقائها في قارورة ، وسد فم القارورة ، وجعل معها ثلاث حبات حنطة ، وتركها سنة بعد ما قالت : ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة ، فوجد حبة ونصف حبة ، فقال : أين زعمك ؟ أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات

29- صححه الألباني في صحيح أبي داود – رقم (5267) - (الدرر السنية – الموسوعة الحديثية) .

.فقالت : نعم ، ولكن لما رأيتك مشغولاً بمصالح بني جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة ، فاقتصرت على نصف القوت ، واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي ، فعجب سليمان من شدة حرصها ، وهذا من أعجب الهداية والعطية .

وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئاً لنفسها دون صواحباتها .ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه ، فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيراً ، ويملؤه ماء ، ثم يضع فيه ذلك الشيء ، فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه ، فيتسلق في الحائط ، ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء ، فتلقي نفسها عليه [30].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة ، فلدغته نملة ، فأمر بجهازه فأخرج ، وأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه : أن قرصتْك نملة أحرقت أمة من الأمم تُسبحُ ! فهلا نملة واحدة !) رواه مسلم .

*** *** ***

المثال الثالث : حاسة الشم لدى الحيوانات[31] :

تمتلك الحيوانات حاسة شم مثل التي لدى الإنسان، غير أنها تستخدمها لأغراض مختلفة وكثيرة. وعموما تستخدم الحيوانات حاسة الشم للبحث عن الطعام وصيد فريستها وإقامة الاتصال بين بعضها البعض وأيضا لتحديد الاتجاه الصحيح، بالإضافة إلى الاهتداء إلى الزوج والصغار. وتمتلك الطيور واللبائن والزواحف والأسماك والحشرات وغيرها من الحيوانات حواس للشم خاصة بها. وينبغي عند قراءة هذا الباب الأخذ بعين الاعتبار الحقائق التالية: كيفية امتلاك هذه الحيوانات لحواسها الشمية، وكذلك لامنطقية الادعاء القائل بأن هذه الكائنات الحية استطاعت امتلاك هذه الحواس الخارقة من تلقاء نفسها أو عن طريق المصادفة.

ومن الطبيعي استحالة امتلاك هذه الكائنات الحية لتلك الحواس بصورة تلقائية أو بالمصادفة، فضلا عن العجز البالغ الذي مني به علماء القرن الحادي والعشرين في صنع أجهزة

30- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل - لابن القيم - ص (104) .

31- مقال كتبه الأستاذ هارون يحي – موقع معرفة الله تعالى .

مماثلة لتلك الحواس الخارقة حتى باستخدام الأجهزة التقنية المتطورة جدا.

وإذا أتينا إلى حاسة الشم التي تمتلكها هذه الكائنات الحية فهناك تفسير منطقي وحيد لكيفية امتلاكها لتلك الحواس وهو الخلق[32].

*** *** ***

فمن الأمثلة على ذلك حاسة الشم لدى الكلاب فهي خبيرة بالروائح : إذا رأيت شخصا يتجول بصحبة كلبه فاعلم أن هناك فرقا شاسعا بينهما من ناحية قوة حاسة الشم، فالكلب يستطيع أن يحصل على معلومات دقيقة عن الوسط الذي يوجد فيه أكثر من التي يشعر بها صاحبه الذي يقوده، فذلك الكلب يستطيع أن يجمع عن طريق الروائح التي يحس بها معلومات عن الكلاب الموجودة في منطقته وحتى عن الناس الموجودين حوله، وهو كذلك يستطيع أن يميز الروائح المنتشرة في الجو مهما ضؤلت تراكيزها وبكل سهولة. وللكلاب أنوف حساسة جدا تجاه الروائح، وهناك بعض أنواع الكلاب لديها حاسة شم تفوق حاسة الشم لدى الإنسان بمليون مرة .

ومن خلال بعض البيانات الإحصائية نستطيع أن ندرك هذه الحقيقة العلمية بشكل أفضل، فمساحة المنطقة الشمية في أنف الإنسان تبلغ خمسة سنتمتر مربع، أما تلك الموجودة في أنف الكلاب فتصل مساحتها إلى 150 سنتمتر مربع .

أما بالنسبة إلى الخلايا الشمية المستقبلة فيبلغ عددها في أنف الكلاب أضعاف عددها في أنف الإنسان. وعلى سبيل المثال يحتوي التجويف الأنفي للكلب على 150 مليون خلية شمية.

أما "كلب الراعي الألماني" فيحتوي تجويفه الأنفي على 225 مليون خلية شمية قال تعالى :(قَالَ

32- أثبتت أحدث الدراسات العلمية أن لكل نوع من أنواع الحيوانات رائحة خاصة به، وداخل النوع الواحد هناك روائح إضافية تعمل بمثابة بطاقة شخصية أو جواز سفر للتعريف بشخصية كل حيوان أو العائلات المختلفة، أو أفراد المستعمرات المختلفة . ولم يكن عجيباً أن نجد أحد علماء التاريخ الطبيعي (وهو رويال وكنسون) قد صنف كتاباً مهماً جعل عنوانه : " شخصية الحشرات" .

و الرائحة تعتبر لغة خفية أو رسالة صامتة تتكون مفرداتها من مواد كيماوية أطلق عليها العلماء اسم " (19655.html فرمونات "،وتجدر الإشارة إلى أنه ليست كل الروائح فالإنسان يتعرف على العديد من الروائح في الطعام مثلاً ولكنه لا يتخاطب أو يتفاهم من خلال هذه الروائح،ويقتصر الباحثون استخدام كلمة (فرمونات 19655.html)على وصف الرسائل الكيماوية المتبادلة ين حيوان من السلالة نفسها .

وعليه فقد توصف رائحة بأنها (فمونات19655.html)فرمون بالنسبة إلى حيوان معين،بينما تكون مجرد رائحة بالنسبة لحيوان آخر.(الإعجاز العلمي في القرآن والسنة - الشيخ عبد الله جبر الخطيب - بتصرف) .

رَبّ المَشرِقِ وَالمَغربِ وَما بَينَهُمَا إن كُنتُم تَعقِلُونَ) سورة الشعراء (28) .

بفضل هذه القدرة الفائق على الإحساس بالروائح تستطيع الكلاب إنجاز مهام عديدة تعجز عن أدائها الأجهزة الإلكترونية المعقدة ويعجز عن أدائها الإنسان نفسه، فالكلاب تستخدم في مهام مثل كشف أماكن المخدرات والمواد المهربة والمواد المتفجرة وحتى ملاحقة الهاربين من العدالة وتشخيص أماكن المصابين في الحوادث المختلفة، كل ذلك باستخدام حاسة الشم الهائلة لدى الكلاب.

ومن بين أنواع الكلاب التي بإمكانها القيام بهذه المهام نوع يسمى "Blood hound" أو كلب الصيد المتعقّب، فهذا النوع يستخدم في تعقب الآثار حتى في الأماكن التي تنعدم فيها أية آثار بالنسبة إلى الذين يتم البحث عنهم، حتى إنه يستطيع متابعة تعقب الأثر لمدة أربعة أيام متواصلة وذلك اعتمادا على حاسة شمه القوية، ويستطيع كذلك أن يتعقب أثر إنسان لمسافة ثمانين كيلومترا.

إن المثير للاستغراب هنا هو عدم اشتباه الكلاب في تمييزها لرائحة معينة بين الملايين من الروائح المختلفة الموجودة في المكان نفسه، فهي تستطيع أن تميز بسهولة رائحة معينة بالذات من بين كم هائل من الروائح. و أثبتت التجارب أن الكلب المدرب يستطيع تمييز مادة ما رشت عليها رائحة حيوان الظربان النتنة وتمييزه لتلك المادة بكل سهولة.

*** *** ***

ولقد تبين للباحثين من خلال استخدام تقنية "سكليرين" في التصوير أنّ للكلاب طريقة خاصة في التنفس، فعند قيام الكلب بشم مادة ما يحرك منخري أنفه عند إطلاقه للزفير، وبهذ الطريقة يجد الهواء سبيله إلى الخلف عن طريق الشقوق الجانبية الموجودة في الأنف، وبالتالي يجد هواء الزفير طريقه بإتجاه مغاير للروائح المنبعثة من مصدرها، أي يتم منع اختلاط الروائح بهواء التنفس

يحاول الباحثون الحاليون صنع أجهزة تحسس خاصة انطلاقا من كيفية أداء الأعضاء الشمية في أنف الكلب، وكذلك انطلاقا من دراسة المركز الشمي في مخه69. ولا شك أنّ الحاجة ماسة في وقتنا الحاضر لصنع أجهزة كشف المتفجرات والألغام والمواد السامة، إلا أنّ الأجهزة الإلكترونية المستخدمة حاليا لم تبلغ بعد درجة النجاح التي تحققها الكلاب المدربة.

*** *** ***

المطلب الثالث

التفكر في آثار الأسماء الحسنى

إنَّ كتاب الله جل وعلا فيه آياتٌ متكاثرة ونصوصٌ متضافرة فيها الدعوة إلى معرفة الله من خلا التفكر والتأمل في أسمائه الحسنى وصفاته العلا ، وبيان ما يترتب على هذه المعرفة من الآثار الحميدة والنهايات الرشيدة والمآلات الطيبة يقول الله تعالى ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف:١٨٠] .

ويقول الله تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ [الإسراء:١١٠] ، ويقول الله تعالى: ﴿**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ [طه:٨] .

ويقول الله جل وعلا: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الحشر:٢٢–٢٤] .

وقوله جل وعلا: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾[الطلاق:١٢] والآيات في هذا المعنى كثيرة .

قال قوام السنة الأصفهاني : قال بعض العلماء: أول فرض فرضه الله على خلقه معرفته، فإذا عرفه الناس عبدوه، قال الله تعالى: (**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**) (محمد: من الآية19) فينبغي للمسلمين أن يعرفوا أسماء الله وتفسيرها فيعظموا الله حق عظمته، ولو أراد رجل أن يعامل رجلاً طلب أن يعرف اسمه وكنيته، واسم أبيه واسم جده، وسأل عن صغير أمره وكبيره، **فالله خلقنا ورزقنا. ونحن نرجو رحمته ونخاف من سخطه أولى أن نعرف أسماءه وتفسيرها.**

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى [33]:

البصيرة في الأسماء والصفات أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله بل تكون الشبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشبه والشكوك في وجود الله فكلاهما سواء في البلاء عند أهل البصائر.

33- مدارج السالكين – منزلة البصيرة .

وعقد - أي مجمل - هذا أن يشهد قلبُك الربَّ تبارك وتعالى مستويا على عرشه، متكلما بأمره ونهيه بصيرا بحركات العالم علويه وسفليه وأشخاصه وذواته ، سميعا لأصواتهم رقيبا على ضمائرهم وأسرارهم، وأَمْرُ الممالك تحت تدبيره نازل من عنده وصاعد إليه، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممالك.

موصوفا بصفات الكمال منعوتا بنعوت الجلال، منزَّها عن العيوب والنقائص والمثال ، هو كما وصف نفسه في كتابه وفوق ما يصفه به خلقه ، حي لا يموت قيوم لا ينام عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض .

بصير يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، سميع يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات تمت كلماته صدقا وعدلا وجلَّتْ صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبها ومثلا ، وتعالت ذاته أن تشبه شيئا من الذوات أصلا ، ووسعت الخليقة أفعاله عدلا وحكمة ورحمة وإحسانا وفضلا .

له الخلق والأمر ،وله النعمة والفضل وله الملك والحمد وله الثناء والمجد، أول ليس قبله شيء، وآخر ليس بعده شيء ، ظاهر ليس فوقه شيء، باطن ليس دونه شيء .

أسماؤه كلها أسماء مدح وحمد وثناء وتمجيد ، ولذلك كانت حسنى وصفاته كلها صفات كمال ونعوته كلها نعوت جلال و أفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل.

*** *** ***

كل شيء من مخلوقاته دال عليه ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه ، لم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ولا ترك الإنسان سدى عاطلا بل خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته ، وأسبغ عليهم نعمه يتوسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته، تعرَّفَ إلى عباده بأنواع التعرُّفات وصرَّفَ لهم الآياتِ ونوَّعَ لهم الدَّلالات ودعاهم إلى محبته من جميع الأبواب، ومدَّ بينه وبينهم من عهده أقوى الأسباب فأتمَّ عليهم نعمه السابغة و أقام عليهم حجته البالغة ، أفاض عليهم النعمة وكتب على نفسه الرحمة وضمن الكتاب الذي كتبه أن رحمته تغلب غضبه . اهـ .

وقال العز بن عبد السلام رحمه الله : فهم معاني أسماء الله تعالى وسيلة إلى معاملته بثمراتها من الخوف والرجاء والمهابة والمحبة والتوكل.. وغير ذلك من ثمرات معرفة تلك الصفات.

ويقول أيضاً : ذكر الله بأوصاف الجمال موجب للرحمة وبأوصاف الكمال موجب للمهابة، وبالتفرد بالأفعال موجب للتوكل، وبسعة الرحمة موجب للرجاء، وبشدة النعمة موجب للخوف، والتفرد

بالإنعام موجب للشكر، ولذلك قال سبحانه: **(اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)** سورة الأحزاب(41)[34] .

ودوما أقول كل اسم من أسماء الله تعالى يعطيك معرفة بالله تختلف عن الاسم الآخر بل يعطيك مزيدا من الإيمان بالله تعالى وذوقا في التعبد له جل جلاله وتباركت أسماؤه فمثلا ما تجده من إيمان ومعرفة بالله في معنى اسمه تعالى الحي القيوم يختلف عما تجده من معنى اسمه تعالى الرحمن الرحيم .. وكل ذلك يختلف عما تجده من إيمان في معنى اسمه الواحد القهار أو القوي العزيز.. وهكذا .

*** *** ***

34- من ثمار وفوائد معرفة أسماء الله الحسنى - رقم الفتوى: 31970 – إسلام ويب .

المبحث الثاني

نماذج للتفكر في ثلاثة من الأسماء الحسنى

المطلب الأول : التفكر في اسمه تعالى الخالق .

المطلب الثاني : التفكر في اسمه تعالى القيوم .

المطلب الثالث : التفكر في اسمه تعالى الحكيم .

هذا المبحث تابع لسابقه في موضوعه ولكن فصلته حتى لا يطول الكلام في مطلب واحد فيملَّ القارئ وفي نفس الوقت أردت أن أعطي صورة متكاملة لكيفية التفكر في أسماء الله الحسنى واخترت ثلاثة من أسمائه تعالى وهي الخالق والقيوم والحكيم جل وعلا ، وذلك في ثلاثة مطالب[35]:

المطلب الأول

التفكر في اسمه تعالى الخالق

سنأخذ باختصار بعض آثار اسم الله تعالى الخالق لنصل إلى ما نرمي إليه، تأمل في هذه العبارات [36] :

الخالق : هو الذي ينشئ الشيء من العدم بتقدير وعلم ثم بتصنيع وخلق عن قدرة وغنى ، فالخالق هو الذي قدَّر بعلم وصنع بقدرة فخلق الشيء من العدم.

- ولا يقدر أحد غير الله أن يخلق كائنا حيا يدرك ذاته ويدرك الكون المحيط به ويدرك خالقه ، قال تعالى : **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)** سورة الحج (73).

كونه سبحانه **(خالقاً)** : من أظهر شيء عند العقول، فكيف يكون الخبر عنه بذلك مجازاً؛ وهو أصل كل حقيقة، فجميع الحقائق تنتهي إلى خلقه وإيجاده، فهو الذي خلق وهو الذي علم، كما قال تعالى: **(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)** [العلق: 1-5]. قاله ابن القيم.[37]

- في جسد الإنسان أكثر من مائة تريليون خلية، وداخل كل خلية من هذه الخلايا أجهزة وأعمال ونوى وبرامج وخرائط ومعلومات، كلها تسبح ربها جل وعز وتؤدي دورها على أحسن و أفضل ما يكون.

- في كل خلية (31) مليار حرف من الحمض الوراثي النووي؛ الذي هو ذو حروف أربعة وهو عبارة

35- منقول بتصرف من كتابي : تَأَمُّلاتٌ عَقْلِيَّةٌ وَنَفَحَاتٌ تَعَبُّدِيّةٌ في شَرْحِ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى الْعَلـيَّةِ (وهو منشور في موقع صيد الفوائد ولله الحمد والمنة) .

36- مقتبس من مقال : الله الخالق الخلاق – للأستاذ حسام بن عبدالعزيز الجبرين – موقع الألوكة الشرعية

37 / مختصر الصواعق المرسلة – (328/2) – نقلا عن موقع الدرر السنية .

عن مادة وراثية موجودة في نواة البويضة ومسؤولة عن جميع وظائف الجسم الحيوية المختلفة.

وهذه الأعداد الهائلة من الحروف النووية الحمضية، وهذه الكميات الهائلة من الذرات والخلايا الموجودة في جسدك كلها ناطقة ومعترفة بعظمة الله سبحانه وتعالى و أنه الخلاّق.

- كما أن في الإنسان ما بين (500 - 600) مليون حيوان منوي تمر عبر المهبل، وكل واحد من هذه الحيوانات قابل لأن يكون إنسانا بإذن الله عز وجل، ولكن الله سبحانه وتعالى بقدرته وحكمته يختار واحد من هذه الملايين يقوم بتلقيح البويضة؛ ليكون هذا الإنسان السوي المختار.. الناطق العاقل.. المتصرف في شؤونه بإذن ربه.

*** *** ***

- هكذا خُلقنا فلنتواضع لعظمة الله عز وجل وكبريائه! ولنتذكر البداية التي كنا منها؛ لندرك الفرق الهائل بين هذه النطفة وهذا الإنسان السوي.

- والآن ارفع رأسك إلى السماء حين يمسيك الليل ففوق رأسك ثمّة مليارات المجرات والمجرّة عبارة عن تجمّع من النجوم المختلفة الواسعة الكثيرة الهائلة والمسافات في النجوم والمجرات لا يقدرها المختصون بالكيلو متر وإنما بسرعة الضوء! والضوء يقطع في الثانية الواحدة 300 ألف كيلو متر ويقطع الضوء في ساعة واحدة قرابة مليار كيلو متر[38].

والآن انظر في حال قلبك وما يداخله من جلال الله وعظمته حيث تجلت لك قدرته وحكمته من خلال معرفة هذا النزر اليسير من مخلوقاته .

*** *** ***

38- السنة الضوئية (بالإنجليزية: Light Year) (ويرمز لها بالرمز: ly)هي وحدة قياس تستخدم للمسافات الكبيرة والبعيدة جداً كالمسافة بين الأرض والنجوم. وتعرف السنة الضوئية على أنها المسافة التي يقطعها الضوء في سنة واحدة.
تبلغ سرعة الضوء 300 ألف كيلومتر/ثانية، وبهذه السرعة فإن الضوء يقطع 18 مليون كيلومتر في الدقيقة وهذه تسمى الدقيقة الضوئية. تبلغ المسافة التي يقطعها الضوء في سنة واحدة 9,460,730,472,580,800 متر أي أنها تبلغ 9.461 تريليون كيلومتر أو 5.878 تريليون ميل أو 63241.077 وحدة فلكية. المسافات في الكون شاسعة جداً بحيث تقاس بالسنين الضوئية وهي المسافة التي يقطعها الضوء في السنة، حيث أن سرعة الضوء تساوي 299,792,458 م/ثانية وهي السرعة القياسية القصوى في الكون بحيث لا يوجد شيء أسرع من الضوء.(موقع ويكيبيديا) .

ورحم الله القائل :

الشَّمْسُ وَالْبَدْرُ مِنْ آيَاتِ قُدْرَتِهِ وَالْبَرُّ وَالْبَحْرُ فَيْضٌ مِنْ عَطَايَاهُ

الطَّيْرُ سَبَّحَهُ وَالْوَحْشُ مَجَّدَهُ وَالْمَوْجُ كَبَّرَهُ وَالْحُوتُ نَاجَاهُ

وَالنَّمْلُ تَحْتَ الصُّخُورِ الصُّمِّ قَدَّسَهُ وَالنَّحْلُ يَهْتِفُ حَمْدًا فِي خَلَايَاهُ

وَالنَّاسُ يَعْصُونَهُ جَهْرًا فَيَسْتُرُهُمْ وَالْعَبْدُ يَنْسَى وَرَبِّي لَيْسَ يَنْسَاهُ

والقائل أيضاً :

انْظُرْ لِتِلْكَ الشَّجَرَهْ ذَاتِ الْغُصُونِ النَّضِرَهْ

كَيْفَ نَمَتْ مِنْ حَبَّةٍ وَكَيْفَ صَارَتْ شَجَرَهْ

ابْحَثْ وَقُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يُخْرِجُ مِنْهَا الثَّمَرَهْ

ذَاكَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي أَنْعُمُهُ مُنْهَمِرَهْ

ذُو حِكْمَةٍ بَالِغَةٍ وَقُدْرَةٍ مُقْتَدِرَهْ

وَ انْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ الَّتِي جَذْوَتُهَا مُسْتَعِرَهْ

فِيهَا ضِيَاءٌ وَبِهَا حَرَارَةٌ مُنْتَشِرَهْ

ابْحَثْ وَقُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يُخْرِجُ مِنْهَا الشَّرَرَهْ

ذَاكَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي أَنْعُمُهُ مُنْهَمِرَهْ

ذُو حِكْمَةٍ بَالِغَةٍ وَقُدْرَةٍ مُقْتَدِرَهْ

*** *** ***

المطلب الثاني

التفكر في اسمه تعالى القيوم

قد يكون اختيار اسمه تعالى القيوم في هذه الرسالة ضروري نظراً لضخامة الحوادث في زماننا اليوم وتسارعها ومفاجآتها حتى أصبح المرء يتوقع في كل يوم يستيقظ فيه حوادث ومفاجآت جديدة، تنسيه ما حدث بالأمس، ونظراً لانصراف كثير من الناس عن ربط هذه الأحداث بتدبير الله عز وجل وقيوميته وحكمته ورحمته ولطفه إلى ربطها بتفسيرات مادية وتحليلات سياسية متخبطة، فنظراً لذلك كله رأيت أن أنبه نفسي وإخواني المسلمين إلى أن نرتبط بالله عز وجل وأن نتعرف على أسمائه الحسنى وصفاته العلى وآثارها في النفوس والآفاق والأحداث والنوازل، فما أشرفه من علم وما أسعد من وفقه الله إلى هذا العلم بمعرفة الحق والهداية إليه والانقياد له، وعليه أقول ومن الله أرجو السداد والقبول : فمما يتعلق باسمه تعالى القيوم [39] :

- **قال الغزالي رحمه الله :** إن كَانَ فِي الْوُجُود مَوْجُود يَكْفِي ذَاته بِذَاتِهِ وَلَا قوام لَهُ بِغَيْرِهِ وَلَا يشْتَرط فِي دوَام وجوده وجود غَيره فَهُوَ الْقَائِم بِنَفسِهِ مُطلقًا فَإِن كَانَ مَعَ ذَلِك يقوم بِهِ كل مَوْجُود حَتَّى لَا يتَصَوَّر للأشياء وجود وَلَا دوَام وجود إِلَّا بِهِ فَهُوَ القيوم لِأَن قوامه بِذَاتِهِ وقوام كل شَيْء بِهِ وَلَيْسَ ذَلِك إِلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

اسم الله القيوم من عظمته : أن جاء ذكره في أعظم آية من كتاب الله؛ آية الكرسي، قال الله تعالى: **(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)** [البقرة: 255]،وقد قال المفسرون أن سبب كون آية الكرسي أعظم آية في القرآن هو وجود اسمي الله الحي والقيوم، كما ورد في مواطن أخرى من القرآن، قال الله تعالى: **(وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا)** [طه:111]. وقال تعالى: **(الم* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)** [آل عمران: 1- 2] .**ومما يلحظ أن القيوم جاء مقترناً بالحي في هذه المواضع الثلاث وليس لها رابع في القرآن الكريم .**

*** *** ***

39- مقال : اسم الله (القيوم) و آثاره في الأحداث المعاصرة - للأستاذ عبد العزيز بن ناصر الجليل – مجلة البيان - العدد (369) وكتابي: تَأَمُّلاتٌ عَقْلِيَّةٌ وَنَفَحَاتٌ تَعَبُّدِيَّةٌ فِي شَرْحِ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى الْعَلـيـَّةِ (بتصرف) .

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى معنى هذا الاسم العظيم في أكثر من موطن من كتبه. ومن ذلك قوله: «وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه لا يحتاج إلى من يقيمه بوجه من الوجوه. وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه، وهو المقيم لغيره فلا قيام لغيره إلا بإقامته، وهذا من كمال قدرته وعزته» [40] .

وقال في موطن آخر: «وكذلك إذا شهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال، وأنه قائم على كل شيء وقائم على كل نفس، وأنه تعالى هو القائم بنفسه المقيم لغيره القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره وإيصال جزاء المحسن إليه وجزاء المسيء إليه، وأنه بكمال قيوميته لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ويرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل لا تأخذه سنةولا نوم ولا يضل ولا ينسى.

وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين، وهو مشهد الربوبية، وأعلى منه مشهد الإلهية الذي هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاء، وهو شهادة أن لا إله إلا هو وأن إلهية ما سواه باطل ومحال كما أن ربوبية ما سواه كذلك فلا أحد سواه يستحق أن يؤله ويعبد ويصلى له ويسجد ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله » [41].

وقال في نونيته المشهورة :

هذا ومن أوصافه القيوم والـ ... قيوم في أوصافه أمران

إحداهما القيوم قام بنفسه ... والكون قام به هما الأمران

فالأول استغناؤه عن غيره ... والفقر من كل إليه الثاني

والوصف بالقيوم ذو شأن عظيم ... هكذا موصوفه أيضاً عظيم الشأن

وعند قوله تعالى: (**أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ**)[الرعد: ٣٣] **يقول الشوكاني رحمه الله تعالى:** «القائم الحفيظ والمتولي للأمور. وأراد سبحانه نفسه فإنه المتولي لأمور خلقه، المدبر لأحوالهم بالآجال والأرزاق، وإحصاء الأعمال على كل نفس» [42].

*** *** ***

40- بدائع الفوائد – لابن القيم (410/2) .

41- طريق الهجرتين - ص 79،80.

42- فتح القدير – الشوكاني – (120/3) .

هذه بعض معاني اسمه سبحانه (**القيوم**)، والتي فيها البلسم الشافي للقلوب والمعين في التفسير الصحيح للأحداث والميزان القسط للمواقف والأحكام والطمأنينة والسكينة التي يسكبها في قلوب المؤمنين العارفين.

ويمكن زيادة البيان حول هذه المعاني في الأمور التالية:

الأمر الأول : إن تدبر معاني أسماء الله عز وجل ومنها اسمه سبحانه «القيوم» يزيد من يقين المسلم واطمئنانه على أن كل ما يجري في ملكوت الله عز وجل علويه وسفليه من خلق أو أمر إنما يقع بعلم الله وإرادته وإذنه، فهو المقدر له الخالق لجميع الخلق وأفعالهم، وأن كل ما يقدره سبحانه ويخلقه ويوجده ناشئ عن علمه وحكمته سبحانه وقهره وعزته وعدله ولطفه ورحمته، والعارفون لربهم سبحانه المدركون لهذه المعاني والمسلمات هم الذين يعيشون في طمأنينة وحسن ظن بالله تعالى في كل ما يقدره سبحانه، ويوقنون أن أقضيته قد وقعت في مواقعها التي ينبغي أن تقع فيها، علم الحكمة منها من علم وجهلها من جهل، ومثل هذا الشعور يجعل المؤمن يتلقى أقضية ربه بطمأنينة غير متفاجئ أو مستغرب منها، لعلمه أن الخلق والأمر له وهو مقتضى أسمائه الحسنى وسننه العادلة المطردة التي لا تتبدل.

ولا يعني هذا الرضا الاستسلام لأقدار الله عز وجل الكونية التي يمكن مدافعتها، وإنما الواجب أن ندافع أقدار الله بأقدار الله، فكما ندافع قدر الجوع بالأكل، والمرض بالتداوي، كذلك ندافع كل نازلة كونية بقدر آخر من أقدار الله ندافعها به إن أمكن ذلك، وذلك بالقيام بالأسباب الدافعة لها، فيدفع مثلاً قدر تسلط الأعداء وغزوهم العسكري أو العقدي أو السلوكي بقدر آخر أمرنا الله عز وجل به، وهو مدافعة ذلك كله بجهاد الدفع، إن كان عسكرياً فبالسنان، وإن كان فكرياً فبالحجة والبيان، وإن كان سلوكياً فبالتربية والتحصين والاحتساب.

*** *** ***

الأمر الثاني : إذا استقر في حس المؤمن أن كل ما يجري في السماوات والأرض من قضاء الله وقدره إنما هو بعلم الله عز وجل وإذنه فيه وخلقه وقهره وعزته ولو شاء الله لما كان ووجد، وأن الخلق جميعهم تحت قهره وعزته وقوته نواصيهم بيده لا يستطيعون فعل أي شيء إلا بإذنه سبحانه، إذا استقر هذا في قلب المؤمن فإنه حينئذ يغيب في شهود قيوميته سبحانه وقهره وعزته عن شهود أفعال العباد وتدبيرهم والخوف منهم أو رجائهم أو ابتغاء مرضاتهم وتقديم محابهم على محاب الله عز وجل. فيغيب في تدبير الله عز وجل وعزته وقهره وشهود حكمته ولطفه عن شهود تدبير العباد

وقوتهم فلا يراهم شيئاً، وإن كان مأموراً بأن يحذرهم ويأخذ بالأسباب التي تبطل باطلهم وتدفع صيالهم، فيغيب في إرادة الله عز وجل وتدبيره عن إرادة غيره وتدبيره، وبمحبته عن محبة من سواه، وبخوفه عن خوف من سواه، وبرجائه والتوكل عليه عن رجاء من سواه، فلله كم تثمر هذه المشاهد في قلب المؤمن من المحبة لله سبحانه وتجريد الخوف والرجاء والإخلاص له والنظر إلى المخاليق الضعاف مهما بلغوا من القوة والبطش على أنهم في قبضة الله عز وجل ونواصيهم بيده ولا يستطيعون تدبير أمر أو فعل شيء إلا بإذنه وحكمته ولطفه بعباده المؤمنين، قال الله عز وجل عن نبيه هود عليه السلام حينما هدده قومه قوم عاد الشداد قال تعالى : **(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)**[هود: 55، 56].

كم نحن في حاجة لإحياء هذا البعد وهذه المعاني في نفوسنا ونفوس المسلمين حتي يضعوا الأمور في مواضعها الصحيحة ويزنوها بميزان الله عز وجل القسطاس المستقيم، وذلك بأن يغيب في تدبير الله وإرادته ومحبته والخوف منه ورجائه عن تدبير وإرادة ومحبة من سواه وعن الخوف مما سواه، وهذه المعاني هي التي عبر عنها ابن القيم رحمه الله تعالى بالفناء المحمود، حيث ذكر في «باب الفناء» في مدارج السالكين نوعين من الفناء:

فناء الملاحدة والزنادقة من غلاة الصوفية الذين انتهى بهم إلى وحدة الوجود والاتحاد وأنه ليس ثمة خالق ومخلوق وأن وجود جميع الموجودات هو عين وجود الله تعالى.

الفناء المحمود فناء عباد الله المخلصين من الرسل وأتباعهم، وهو فناء المؤمن في إرادة الله عز وجل والخوف منه ورجائه عن إرادة ما سواه أو الخوف والرجاء لمن سواه، هذا وإن كانت كلمة «الفناء» عبارة ومصطلح صوفي إلا إن ابن القيم رحمه الله تعالى فصل فيه وذكر الجانب المحمود منه فقال: «وأما أهل التوحيد والاستقامة: فيشيرون بالفناء إلى أمرين، أحدهما أرفع من الآخر.

*** *** ***

والمقصود أن من عرف ربه سبحانه باسمه الرب العزيز الرحيم الحي القيوم الحكيم العليم لم يلتفت إلى غيره ولم يبق فيه إلا الحي القيوم المدبر الذي لا يوجد شيء ولا تنزل نازلة إلا بإذنه وحكمته فله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد ولا يحدث الخلق شيئاً إلا بإذنه، وإذا استقرت هذه المعاني والأعمال في قلب المؤمن غاب خوف المخلوق عنه واستولى الخوف من الله وحده وغاب

التعلق بالأسباب وبالمخاليق الضعاف وتمكن التوكل على الله وحده في القلب مع أخذه للأسباب تعبداً لله عز وجل الذي هو مسبب الأسباب.

إن غياب هذه المعاني والأعمال القلبية عن قلوب كثير من الناس وهم يتعرضون اليوم للأحداث والنوازل المتسارعة والمكر الكبار من أعدائهم هو الذي يؤدي بهم إلى الخوف من الخلق الضعفاء أو التعلق بهم ورجاء ثوابهم والخوف من عقابهم، لأنه قد اضطربت موازينهم ومواقفهم وأحكامهم وسيطرت عليها التفسيرات المادية والتحليلات السياسية المقطوعة عن الله عز وجل وقيوميته وحكمته وعزته ورحمته، فلا تسأل بعد ذلك عن الضياع والحيرة والتخبط والاضطراب، قال الله عز وجل: (**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**) [يونس: 32].

وقال سبحانه: (**أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ**) [محمد: 14]، وقال سبحانه: (**أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**) [الرعد: 19].

*** *** ***

الأمر الثالث : مع ظهور آثار قيوميته سبحانه لكل شيء من المخلوقات جامدها ومتحركها، فاجرها وتقيها، إلا إن لآثار قيوميته سبحانه بأوليائه وبمن أحبه شأناً آخر وطعماً خاصاً يظهر في حفظه ولطفه ورعايته بعباده المتقين، وهذا يقتضي محبة الله عز وجل المحبة التامة والركون إليه والتعلق به وحده والسكون إليه والرضا بتدبيره.. وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «فإنه سبحانه القيوم المقيم لكل شيء من المخلوقات طائعها وعاصيها فكيف تكون قيوميته بمن أحبه وتولاه وآثره على ما سواه، ورضي به من دون الناس حبيباً ورباً ووكيلاً وناصراً ومعيناً وهادياً؟ فلو كشف الغطاء عن ألطافه وبره وصنعه له من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم لذاب قلبه حباً له وشوقاً إليه ولتقطع شكراً له، ولكن حجب القلوب عن مشاهدة ذلك إخلادها إلى عالم الشهوات والتعلق بالأسباب، فصدت عن كمال نعيمها، وذلك بتقدير العزيز العليم، وإلا فأي قلب يذوق حلاوة معرفة الله ومحبته ثم يركن إلى غيره ويسكن إلى ما سواه؟ هذا ما لا يكون أبداً» [43].

*** *** ***

43- طريق الهجرتين- (180/1)- ط دار السلفية (مصر).

المطلب الثالث

التفكر في اسمه تعالى الحكيم

إن معرفة اسمه الحكيم سيفسر للعبد كثيراً من الحكم الإلهية في أفعاله في الكون وتشريعاته في كتابه ومن هنا جاء اختياره في هذه الرسالة الموجزة[44] .

- **قال الغزالي رحمه الله : أنه ذُو الْحِكْمَة :** وَالْحِكْمَة عبارَة عَن معرفَة أفضل الْأَشْيَاء بِأَفْضَل الْعُلُوم وَأجل الْأَشْيَاء هُوَ الله سُبْحَانَهُ وَقد سبق أَنه لَا يعرف كنه مَعْرفَته غَيره فَهُوَ الْحَكِيم الْحق لِأَنَّهُ يعلم أجل الْأَشْيَاء بِأَجل الْعُلُوم إِذْ أجل الْعُلُوم هُوَ الْعلم الأزلي الدَّائِم الَّذِي لَا يتَصَوَّر زَوَاله .

وقيل الحكيم : الذي يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها مواقعها، ولا يأمر إلا بما فيه الخير، ولا ينهى إلا عما فيه الشر، ولا يعذب إلا من استحق، ولا يقدر إلا ما فيه حكمة وهدف، فأفعاله سديدة، وصنعه متقن، فلا يقدِّر شيئاً عبثاً، ولا يفعل لغير حكمة؛ بل كل ذلك بحكمة وعلم، وإن غاب عن الخلائق.

- قال بعضهم : ذكر الحكيم في القرآن أكثر من تسعين مرة، اقترن في أكثرها بالعزيز والعليم، مما يدل على أن حكمته صادرة عن عزة وعلم، قال تعالى: (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) [آل عمران: 126].وقال تعالى: (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) [الأنعام: 83].وقال أيضًا: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)[الأنعام: 18].

ووجه دلالة اسمه تعالى الحكيم على كماله : أن حكمته محفوفة بالعلم ومحاطة بالخبرة والعلم ومقيدة الرحمة والر أفة تفضلا لا وجوبا من أحد ، كما أن حكمته ظاهرة في تدبيره للخلق وتسييره لشؤونهم .

تعلمت من اسمه تعالى الحكيم : ما يأتي :

44- نقلا من كتابي : تَأَمُّلاتٌ عَقْلِيَّةٌ وَنَفَحَاتٌ تَعَبُّدِيَّةٌ فِي شَرْحِ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى الْعَلِـيَّةِ .

- أن أطلب الحكمة أينما كانت أن أتصرف في حياتي بالحكمة وأن أعلم الناس الحكمة ولا حكمة أعظم مما جاء في القرآن وما صح من السنة النبوية (**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**) [البقرة: 269].

- أن لا أقارن بين الحِكم التي تنسب إلى حكماء البشر وحكمة سيد البشر صلى الله عليه وسلم، لأن حكمته صلى الله عليه وسلم مؤيدة بالوحي ، بينما حكمة حكماء البشر فيها ما فيها من الهوى والمصلحة ، وأقول ذلك لأن بعض المسلمين أصبح مولعا بالبحث عن الحكمة في غير كلامه صلى الله عليه وسلم .

- أن الله حكيم في أقداره، فما يقدره الله تعالى على العباد من خير أو شر إنما هو لحكمة بالغة، وتدبير حكيم، قال تعالى: (**حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ**) [القمر: 5].

قال ابن القيم - رحمه الله - وهو يتحدث عن الحكمة: "وله سبحانه الحكمة البالغة في كل ما قدره وقضاه من خير و شر، وطاعة ومعصية، وحكمة بالغة تعجز العقول عن الإحاطة بكنهها، وتكل الألسن عن التعبير عنها" .[45]

***   ***   ***

كما تعلمت من اسمه الحكيم سبحانه[46] :

- أنَّ مَن عرف جَمِيع الْأَشْيَاء وَلم يعرف الله عز وَجل لم يسْتَحق أَن يُسمّى حكيما ، لِأَنَّهُ لم يعرف أجلَّ الْأَشْيَاء وأفضلها وَالْحكمَة أجل الْعُلُوم ، وجلالة الْعلم بِقدر جلالة الْمَعْلُوم ، وَلَا أجلَّ من الله عز وَجل وَمن عرف الله تَعَالَى فَهُوَ حَكِيم وَإِن كَانَ ضَعِيف الفطنة فِي سَائِر الْعُلُوم الشرعية الأخرى كليل اللِّسَان قَاصِر الْبَيَان فِيهَا إِلَّا أَن نِسْبَة حِكْمَة العَبْد إِلَى حِكْمَة الله تَعَالَى كنسبة مَعْرِفَته بِهِ إِلَى مَعْرِفَته بِذَاتِهِ وشتان بَين المعرفتين فشتان بَين الحكمتين وَلكنه مَعَ بُعده عَنهُ فَهُوَ أنفس المعارف وأكثرها خيرا **وَمن أُوتِيَ الْحِكْمَة فقد أُوتِيَ خيرا كثيرا** .

وحين نتأمل في اسم الله الحكيم فإن العبد يسلّم لدين الله ويوقن أن أوامر الله لها حكمة وإن غابت عنا، وكم لله من حِكمٍ في العبادات وإن شقت، فللصوم حِكم وللجهاد على رغم لأوائه حِكم،

---

45 / مدارج السالكين (439/1).

46 / مختصر من مقال بعنوان : تأملات في اسم الله الحكيم - للشيخ : منصور محمد الصقعوب – موقع ملتقى الخطباء .

وللصلاة من الحكم ما لا يحصر، وما زال حتى أهل الطب يذكرون فائدتها للبدن، وفائدتُها للدين أشرف وأشهر.

وحين ينهى الله عن أمر فمن وراء ذلك الحِكم، وكم تزيغ المجتمعات حين لا ترتدع عن نواهي ربها، وهو ما نهى عنها إلا لعلمه وحكمته، وما تحريم الزنا والخمر والخنزير إلا نماذج تجني المجتمعات من ارتكابها الويلات، ولكنّ مطموس القلب ربما ظن النهي من الله بلا هدف، ومع ما في المنهيات من أمورٍ حَكَم الله لأجلها بالنهي؛ فإن من وراء ذلك أيضاً التعبد لله بتركها، ولا غروا! فمن أمر بهذا ونهى عن هذا هو الحكيم العليم.

*** *** ***

- أن الله خلق الخلق لحكمة، وقدّر الموت والحياة، والجنة والنار، لحكمة شريفة وهي العبادة، فيتبين في الميدان المطيعُ من العاصي، والشكورُ من الكفور، ومَن ظن الله يخلق بلا حكمة ويُقدِّر بلا هدف ويأمر بلا مصلحة فقد ضل وما هدى، وأخطأ وأساء، وقد قال المولى: **(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)** [المؤمنون:115].

- الله -سبحانه- خلق السماوات والأرض فلا ترى فيها عوجاً، وأوجد الإنسان والمخلوقات فأبدع صنعاً، يدبر الكون بانتظام، فيعطي هذا ويمنع هذا، لأن الحياة لا تستقيم بعكس ذلك، يسخر هذا لخدمة هذا بحكمته وهو الحكيم، **(أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)** [طه:50]، **(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)** [القمر:49].

- أن الله بحكمته يقدر على العبد المصيبة والبلاء، ويحول حال الرخاء، فتحل الأحزان ليس ذلك عبثاً؛ بل لحكم عظمى، وما الأجر والاعتبار إلا شيء من هذه الحكم، وانظر في قول الله **(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّوَالْبَحْرِ)** [الروم:41].

- والحكيم سبحانه خالف بين الناس في معايشهم وأوصافهم فلم يجعلهم سواءً لحكمة، قال ابن القيم: الله سبحانه يحب أن يشكر، ولذا فاوت بين عباده في صفاتهم الظاهرة والباطنة في خلقهم وأخلاقهم وأديانهم وأرزاقهم ومعايشهم وآجالهم، فإذا رأى المعافى المبتلى والغنيُّ الفقيرَ والمؤمنُ الكافرَ عظُم شكره لله، وعرف قدر نعمته عليه، وما فضَّله به على غيره، فازداد شكرا وخضوعا واعترافا بالنعمة، فالضدُّ يظهر حسنَه الضدُّ، وبضدها تتبين الأشياء، ولولا خَلق

القبيح لما عرفت فضيلةَ الجمالِ والحُسنِ، ولولا خَلقُ الظلام لما عرفت فضيلة النور، ولولا خلق أنواع البلاء لما عرف قدر العافية، ولولا الجحيم لما عرف قدر الجنة، ولو جعل الله - سبحانه- النهارسرمدا لما عرف قدره، ولو جعل الليل سرمدا لما عرف قدره، وأعرف الناس بقدر النعمة من ذاق البلاء.

- ومن حكمة الحكيم أنْ فاضَل بين الناس فوفّق قوماً للدين، ووكل قوماً لأنفسهم فاختاروا الكفر، ولا يعجز الله هدايتهم، ولو شاء لهدى الناس أجمعين، لكنه حكيم، جعل الكفر والإيمان، وسلط الشيطان على بني الإنسان حكمة منه.

وقد أجاد الإمام ابن القيم رحمه الله في بيان الحكمة من خلق إبليس فقال[47] - اقتصرت على بعضها - : (قولهم أي حكمة في خلق إبليس وجنوده؟ ففي ذلك من الحكم مالا يحيط بتفصيله إلا الله ،

فمنها:أن يكمل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه ومخالفته ومراغمته في الله وإغاظته وإغاظة أوليائه والاستعاذة به منه والالتجاء إليه أن يعيذهم من شره وكيده فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل بدونه.

ومنها: خوف الملائكة والمؤمنين من ذنبهم بعد ما شاهدوا من حال إبليس ما شاهدوه وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المنزلة الإبليسية يكون أقوى، و أتم ولا ريب أن الملائكة لما شاهدوا ذلك حصلت لهم عبودية أخرى للرب تعالى وخضوع آخر وخوف آخر كما هو المشاهد من حال عبيد الملك إذا رأوه قد أهان أحدهم الإهانة التي بلغت منه كل مبلغ وهم يشاهدونه فلا ريب أن خوفهم وحذرهم يكون أشد.

ومنها: أنه سبحانه جعله عبرة لمن خالف أمره وتكبر عن طاعته وأصر على معصيته كما جعل ذنب أبي البشر عبرة لمن ارتكب نهيه أو عصى أمره ثم تاب وندم ورجع إلى ربه فابتلى أبوي الجن والإنس بالذنب وجعل هذا الأب عبرة لمن أصر وأقام على ذنبه وهذا الأب عبرة لمن تاب ورجع إلى ربه فلله كم في ضمن ذلك من الحكم الباهرة والآيات الظاهرة .

---

47 / شفاء العليل – لابن القيم - ص322.

ومنها: أنه محكٌّ امتحنَ اللهُ به خلقه ليتبين به خبيثهم من طيبهم فإنه سبحانه خلق النوع الإنساني من الأرض وفيها السهل والحزن والطيب والخبيث فلا بد أن يظهر فيهم ما كان في مادتهم كما في قوله صلى الله عليه وسلم : (إن اللهَ خلَقَ آدمَ مِن قبضةٍ قَبَضَها مِن جميعِ الأرضِ ، فجاءَ بنو آدمَ على قَدْرِ الأرضِ : جاء منهم الأحمرُ ، والأبيضُ ، والأسودُ ، وبينَ ذلك ، والسَّهْلُ ، والحَزْنُ ، والخبيثُ ، والطيِّبُ) [48].

فما كان في المادة الأصلية فهو كائن في المخلوق منها فاقتضت الحكمة الإلهية إخراجه وظهوره فلا بد إذا من سبب يظهر ذلك وكان إبليس محكا يميز به الطيب من الخبيث كما جعل أنبياءه ورسله محكا لذلك التمييز، قال تعالى : **(مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)** سورة آل عمران (179) ، فأرسله الى المكلفين وفيهم الطيب والخبيث فانضاف الطيب الى الطيب والخبيث الى الخبيث واقتضت حكمته البالغة أن خلطهم في دار الامتحان ، فإذا صاروا إلى دار القرار يميز بينهم وجعل لهؤلاء دارا على حدة ولهؤلاء دارا على حدة حكمة بالغة وقدرة قاهرة.

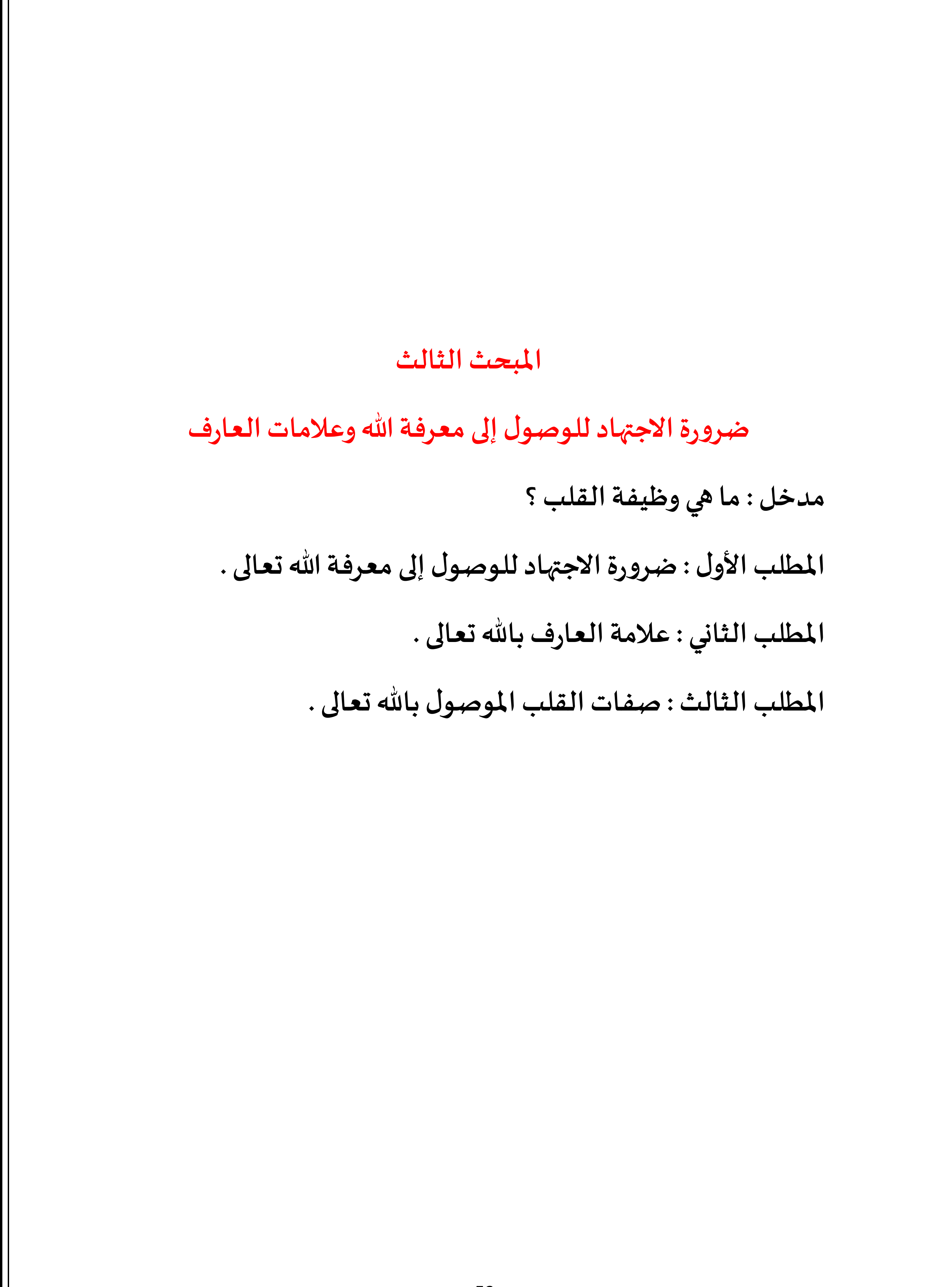
ومنها: أن يظهر كمال قدرته في خلق مثل جبريل والملائكة وإبليس والشياطين وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه فإنه خالق الأضداد كالسماء والأرض والضياء والظلام والجنة والنار والماء والنار والحر والبرد والطيب والخبيث.

ومنها: أن المادة النارية فيها الإحراق والعلو والفساد وفيها الإشراق والإضاءة والنور فأخرج منها سبحانه هذا وهذا كما أن المادة الترابية الأرضية فيها الطيب والخبيث والسهل والحزن والأحمر والأسود والأبيض فاخرج منها ذلك كله حكمة باهرة وقدرة قاهرة و آية دالة على أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ومنها: أن من أسمائه الخافض الرافع المعز المذل الحكم العدل المنتقم وهذه الأسماء تستدعي متعلقات يظهر فيها أحكامها كأسماء الإحسان والرزق الرحمة ونحوها ولا بد من ظهور متعلقات هذه وهذه.

*** *** ***

48/ رواه الترمذي و أبو داود وصححه أبو بكر بن العربي في عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي – حديث رقم (13538) كما صححه الألباني في صحيح أبي داود .



المبحث الثالث

ضرورة الاجتهاد للوصول إلى معرفة الله وعلامات العارف

مدخل : ما هي وظيفة القلب ؟

المطلب الأول : ضرورة الاجتهاد للوصول إلى معرفة الله تعالى .

المطلب الثاني : علامة العارف بالله تعالى .

المطلب الثالث : صفات القلب الموصول بالله تعالى .

مدخل

ما هي وظيفة القلب ؟

من خلال ما سبق اتضحت لنا أهمية معرفة الله وثمارها من زيادة في الإيمان ورسوخ في اليقين ومحبة وتعظيم لله تعالى - ونحوها من المعاني - وضرورة بذل جهد كبير للوصول إليها ، ولما كانت تلك المعرفة أمرها جلل وفائدتها عظيمة ،كان من الأهمية بمكان أن نوضح أثرها على القلب ، وقبل بيان ذلك أخي القارئ الكريم أحببت أن أطرح سؤالا : ما هي وظيفة القلب ؟

وهو على سهولته إلا أن البعض قد يعجز عن الإجابة عليه ، لأن الكثيرين يعرفون وظائف الحواس كلها فالعين وظيفتها النظر والأذن وظيفتها السمع ،ولكن عندما تسأله ما هي وظيفة القلب ؟ يجيب بالوظيفة العضوية إلا أن للقلب وظيفة أخرى هي أسمى وأهم ، ألا وهي معرفة الله تعالى .

ويتولد عن هذا السؤال سؤال آخر : ما دليل وجود معرفة الله في القلب وإن شئت فقل ما هو أثر تلك المعرفة في القلب ؟ .

أجيب عن هذا السؤال بكلام قيِّم للعلامة ابن القيم رحمه الله تعالى حيث يقول : وقد تكلموا على المعرفة بآثارها وشواهدها [49]:

فقال بعضهم : من أمارات المعرفة بالله : حصول الهيبة منه ، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته .

وقال أيضا : المعرفة توجب السكون ، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته .

وقال لي بعض أصحابنا : ما علامة المعرفة التي يشيرون إليها ؟ فقلت له : أُنْسُ القلب بالله ، قال لي : علامتها أن يحس بقرب قلبه من الله ، فيجده قريبا منه .

49- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين – لابن القيم - منزلة المعرفة .

وقال الشبلي رحمه الله تعالى : ليس لعارفٍ علاقة - أي بالمخلوقين - ولا لمحبٍّ شكوى ، ولا لعبدٍ دعوى ، ولا لخائفٍ قرار . ولا لأحدٍ من الله فرار .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى – معلقاً - : وهذا كلام جيد ، فإن المعرفة الصحيحة تقطع من القلب العلائق كلها ، وتعلقه بمعروفه ، فلا يبقى فيه علاقة بغيره ، ولا تمر به العلائق إلا وهي مجتازة ، لا تمر مرور استيطان .

وقال أحمد بن عاصم رحمه الله تعالى : من كان بالله أعرف كان له أخوف ، ويدل على هذا قوله تعالى : (**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**) فاطر (28) وقول النبي صلى الله عليه وسلم : **(أنا أعرفكم بالله ، وأشدكم له خشية)** .

وقال آخر : من عرف الله تعالى ضاقت عليه الدنيا بسعتها .

وقال غيره : من عرف الله تعالى اتسع عليه كل ضيق .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى – معلقاً - : ولا تنافي بين هذين الأمرين ، فإنه يضيق عليه كل مكان لا يساعد فيه على شأنه ومطلوبه ، ويتسع عليه ما ضاق على غيره ، لأنه ليس فيه ، ولا هو مساكن له بقلبه ، فقلبه غير محبوس فيه .

والأول : في بداية المعرفة . **والثاني :** في نهايتها التي يصل إليها العبد .

وقال آخر : من عرف الله تعالى صفا له العيش ، فطابت له الحياة ، وهابه كل شيء ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وأنس بالله .

وقال غيره : من عرف الله قرت عينه بالله ، وقرت عينه بالموت ، وقرت به كل عين ، ومن لم يعرف الله تقطع قلبه على الدنيا حسرات ، ومن عرف الله لم يبق له رغبة فيما سواه .

ومن عرف الله أحبه على قدر معرفته به ، وخافه ورجاه ، وتوكل عليه ، وأناب إليه ، ولهج بذكره ، واشتاق إلى لقائه واستحيا منه ، وأجله وعظمه على قدر معرفته به .

***   ***   ***

المطلب الأول

ضرورة الاجتهاد للوصول إلى معرفة الله تعالى

لا شك أن للباطن تأثير في الظاهر بمعنى أن ما يحمله الإنسان في قلبه من مبادئ ومعتقدات فستكون حركته في الحياة على وفقها دون تكلُّف فمثلا لا يمكن لرجل يؤمن بأن المال عصب الحياة ألا يسعى لجمعه والاستمتاع به بل إنه لا يملك إلا أن يبذل الوقت والجهد للوصول إليه ... هكذا من عرف الله تعالى لا يستطيع أن يعيش دون طاعته و السعي في مرضاته .

ومعرفة الله تعالى تملأ القلب بتلك المعاني التي أشرنا إليها في المبحث السابق من الحب والإجلال والهيبة والتعظيم له سبحانه وهذا الامتلاء بسببه تلين الأعضاء لرب الأرض والسماء ، على خلاف خالي القلب فإن أعضاءه لا تطاوعه ولو ملأ الدنيا ضجيجا بأنه يحب الله تعالى .

ولذا كان منهج الصالحين النظر إلى أفعال الرجل لا إلى أقواله ؛ فمن كان الله تعالى عظيمًا في قلبه هاب أن يخالفه، ومن كان الله تعالى عظيمًا في جوارحه ساقها إلى مرضاته، وأمسكها عن امتطاء محظوراته.

وحكى الغزالي رحمه الله تعالى قول بعض الصالحين: (لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه) [50] **تماما لو كان أحدنا في مجلس رئيس من الرؤساء أتظنه يجرؤ على مخالفة قانون من القوانين بل نحن لا نجرؤ على مخالفة قانون مروري في حضرة شرطي .**

ويطيب لي أن أنقل لك ما قاله شيخنا الشيخ إبراهيم محمد زين في هذا المقام [51] **:**

من واجب كل مؤمن أن يبذل ما في وسعه ليعرف ربه سواء أكان ذلك بسماع العلماء أو قراءة كتبهم، وسواء أكانت تلك المعرفة عن طريق معرفته سبحانه من خلال أسمائه الحسنى وصفاته العليا أو مِن خلال معرفته بطريق التأمُّل في أفعاله والتدبر لما بثه في الكون وهذه المعرفة

50- إحياء علوم الدين (4/ 425)

51- فتح القدوس بمجموعة الدرروالفوائد من الدروس - لفضيلة الشيخ العلامة / إبراهيم محمد زين – جمع وإعداد أحمد خضر حسنين - الاسكندرية - الدار العالمية للنشر والتوزيع - ص(13-14) (وهو منشور في موقع صيد الفوائد).

مطلوبة إلى حد الضرورة لعدة أسباب :

أولاً : ليصح إسلامنا لأوامر الله الشرعية والقدرية : وأعني بالإسلام هنا الاستسلام والانقياد لأوامره ونواهيه والرضا بأحكامه فينا، سواء أكانت أحكاماً شرعية أو أحكاماً قدرية من صحة ومرض وغنى وفقر إلى غير ذلك من تقلبات الحياة البشرية.

ولتفهم الإسلام الذي هو الاستسلام انظر قصة إبراهيم وذبحه لولده إسماعيل عليهما السلام : تبدأ منذ أن حكى الله تعالى قول إبراهيم عليه السلام : ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى**﴾ فأجاب الله دعاءه وأراه طريقة واحدة من طرق إحياء الموتى فحصلت الطمأنينة في قلب إبراهيم عليه السلام .

*** *** ***

ثم بعد ذلك يرى رؤيا مفادها الأمر بذبح ولده البكر الوحيد إسماعيل عليه السلام فيقول له : ﴿**يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى**﴾ كان جواب ولده المؤمن الثابت الإيمان : ﴿ **يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾ وتمضي القصة في بيان استسلامهما لأمر الله تعالى ﴿**فَلَمَّا أَسْلَمَا**﴾ الصافات (103) ، **وهما كانا قبل ذلك مسلمَيْن ولكن المراد هنا فلما استسلما و انقادا لأمر الله مع عظم ما ابتلاهما به ولكن مع ذلك لم يجد منهما إلا الرضا التام والصدق الكامل في الانقياد له سبحانه** ﴿**وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ الصافات (104-105).

وهكذا لو تتبعت عبادة الاستسلام في حياة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام لوجدتها تعني الانقياد لأمر الله في شرعه وقدره ومن ذلك ما جاء في قصة بلقيس : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ النمل (44).

ثانياً : ليدخل الإيمان في القلب : إن هناك من الناس من يستسلم لأمر الله ولكن بجوارحه فقط ؛ ولا يكون عنده إيمان في باطنه ؛ ولعمري تلك هي المصيبة الحقيقية، وقد ذكر القرآن هذه النوعية فقال تعالى:﴿ **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا**﴾ الحجرات (14) فأثبت لهم الإسلام ونفى عنهم الإيمان، ولا يكون إسلام بلا إيمان إلا إذا كانت المعرفة بالله ضعيفة ومن هنا كان سعينا الدؤوب في الازدياد من معرفة الله والبحث عنها أينما وُجدت وأنى كانت.

وقد أمر الله المؤمنين بالإيمان فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ﴾ النساء (136) وهذه المراد منها تجديد الإيمان لئلا يخلق في جوف العبد ومن هنا كان الأمر بالإيمان لأهل الإيمان يعني التحقق بالإيمان والثبات على الإيمان، والسعي في زيادة الإيمان، ولا يكون ذلك إلا بزيادة المعرفة بالرحمن وصدق الخضوع والإذعان وتلك هي الفائدة الثالثة.

*** *** ***

ثالثاً : الانقياد طوعاً واختياراً بل محبة واطمئناناً : من الناس من يؤمن ويخضع ويستسلم على ما ذكرنا ولكن ربما تأتيه وساوس شيطانية مستنكراً بقلبه بعض ما يقع من حوادث في الكون من حوله – القتل والتشريد في بعض البلاد – أو ما يقع له في خاصة نفسه من مرض ولده أو فقد ماله أو ما شابه ذلك مما تشاهده، فهذه الوساوس إنما كان السبب فيها هو ضعف المعرفة ببعض أسماء الله الحسنى وصفاته العليا **كالحكيم والعليم والخبير، فلكي يحصل الانقياد لأوامر الله الشرعية والقدرية عن حب واطمئنان لا بد من معرفة أسماء الله والتأمل فيها كلما وجد الإنسان فرصة مع الاستمرار على ذلك، لأن الحياة متقلبة وقلب الإنسان أيضاً متقلب ولهذا كان الدعاء النبوي الشريف** : (كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ يُكثِرُ أن يقولَ: يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ فقلتُ: يا نبيَّ اللَّهِ آمنَّا بِكَ وبما جئتَ بِهِ فَهل تخافُ علَينا ؟ قالَ: نعَم إنَّ القلوبَ بينَ إصبَعَينِ من أصابعِ اللَّهِ يقلِّبُها كيفَ شاءَ) رواه الترمذي بأسناد حسن؛وفي رواية (إنَّ القُلوبَ بين أُصبُعينِ من أصابِعِ الرحمنِ يُقلِّبُها كيف يشاءُ) . ([52]) .

ألا يستدعي هذا كله أن نعيش دوماً في ظل المعرفة بالله تعلماً وتعليماً وبحثاً ودراسة ووعظاً وتذكيراً ثم عملاً وخضوعاً ثم إجلالاً وتعظيماً، اللهم إني بلغت اللهم فاشهد.

*** *** ***

إذن تبين لنا من خلال ما سبق أن معرفة الله تعالى كانت ضرورية في حياتنا لأن من آثارها الاستسلام والانقياد لأمر الله تعالى .. ولكن بالنظر إلى و اقع الأمة بصورة عامة نجد أن المخالفات أكثر من الطاعات والشاردين عن الله تعالى أضعاف أضعاف المقبلين عليه الراغبين

52 - أخرجه الترمذي (2140)، وأحمد (12107) . وقال شعيب الأرناؤوط في تخريج العواصم والقواصم (272/2) حسن صحيح .

فيما عنده وذلك مما لا يحتاج إلى شرح أو ضرب مثال ، وتلك دلالة واضحة على خواء القلوب من معرفة بالله تدفع إلى تعظيمه وامتثال أمره .

*** *** ***

هذا مع علم الجميع أن : الدين الإسلامي يدور مع الإنسان على مدار العمر كل يوم، صباحاً مساء، ظهراً ليلاً، بأطوار الشباب والرجولة، والغنى والفقر، والصحة والمرض.

يقول الدكتور محمد راتب النابلسي 53: حينما تقوى مالاً أو مكانةً، أو منصباً أو علماً، الإنسان تغريه نفسه إذا استغنى أن يتفلت من منهج الله، علامة معرفة الله عز وجل أنه مهما بلغت بك المراتب، ومهما أقبلت عليك الدنيا ورعك ورعك، وتواضعك تواضعك، وذلك لله، وخدمة المساكين هي خدمة المساكين، صار سيدنا الصديق رضي الله عنه خليفة المسلمين، وكان قبل أن يكون خليفة المسلمين يحلب شياه جارته العجوز، فلما تسلَّم منصب الخلافة استقر في ذهن هذه العجوز أن هذه الخدمة انتهت، في اليوم الأول مِنْ تسلُّم منصب الخلافة طرق باب العجوز، قالت: يا بنيتي، افتحي الباب، من جاء ؟ قالت: جاء حالب الشاة يا أماه، المنصب لا يغيره، والمال لا يغيره، هو هُو.

الإنسان حينما يقوى، أو حينما يغتني، أو حينما يتسلم منصباً رفيعاً قد يتناول ما يحل له، وما لا يحل، لكن العارف بالله حاله كما قال تعالى: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾ [سورة الأحزاب: 23] .

العارف بالله يتلون بتلون العبودية، فتراه مصلياً، أو ذاكراً، أو قارئاً، أو معلماً، أو مجاهداً، أو حاجاً، أو مساعداً للضعيف، أو مغيثاً للملهوف، فيضرب في كل غنيمة من الغنائم بسهم، فهو مع المتعلمين متعلم، ومع الغزاة غازٍ، ومع المصلين مصل، ومع المتصدقين متصدق، فهو ينتقل في منازل العبودية من عبودية إلى عبودية، وهو مقيم على معبود واحد لا ينتقل في منازل العبودية إلى غيره.

*** *** ***

كم يتحبَّبُ ربُّنا الكريم إلى عباده بنعمه وآلائه - وهو الغني عنهم - **وهم يبتعدون عنه بمعصيته**

53- علامات معرفة الله - موسوعة النابلسي .

ومخالفته -وهم الفقراء إليه - ففضله على عباده واصل، وخيره إليهم نازل، وكرمه إليهم ممتد، وعطاؤه لهم لا يُعد .

فأين التقوى منهم والشكر، والثناء وحسن الذكر، وكل ذلك عائد لهم بالخير والظفر؟.فمن اتقى وشكر، وتعبد لله وصبر، وتعلق به فقد فاز فوزاً عظيمًا.

فما خاب من كان **الله قصده وناحيته**، وما ضعف من كان الله قوته، ولا عجز من كان الله قدرته، وما تاه من كان الله وجهته، وما زاغ من كان الله غايته.

وما افتقر من كان **الله غناه**، وما ذل من كان الله مولاه، وما ضل من كان الله هداه، وما هُزم من كان الله ناصره، ولا كُسر من كان الله جابره.

واعلم أن ما عند الله خير و أبقى، وما عند غيره يذهب ويفنى، فمن الله الكرم والعطاء، وبالله الكفاية والاستغناء، وإلى الله التوجه والالتجاء، وعلى الله اعتماد القلوب، وبه حسن الرجاء إذا دهمت الكروب. فيا أيها الإنسان، إنك تجد عند الله أمنَك عند خوفك، وقوتك عند ضعفك، وسعتك عند ضيقك، وسرورك عند كدرك، ومطالبك عند حرمان الناس لك، فلماذا تلتفت إلى المخلوقين وعندك رب العالمين؟!.

قال الله في الحديث القدسي : (**يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي، كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار و أنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم**). رواه مسلم . وفي الحديث القدسي الآخر: (**إنَّ اللَّهَ تعالى يقولُ يا ابنَ آدمَ : تفرَّغْ لعبادتي أملأْ صدرَك غنًى وأسدَّ فقرَكَ وإن لا تفعَل ملأتُ يديْكَ شغلاً ، ولم أسدَّ فقرَكَ**) رواه الترمذي .

***   ***   ***

المطلب الثاني

علامات العارف بالله تعالى

قد يدَّعي بعض الناس أنه من العارفين بالله ونقول لا بد لكل دعوى من برهان ولولا المطالبة بالبرهان لادَّعى مَنْ شاء ما شاء ، ولذا قال الله تعالى : **(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)** سورة النمل (64) والبرهان هو الحجة والدليل على صحة الدعوى ، فلما كان الأمر كذلك كان لا بد من الإشارة إلى علامات العارف بالله تعالى ، فأقول ومن الله أرجو السداد والقبول :

من علامات العارف الله : ألَّا يعتقد باطناً من العلم ما يَنقضُه في ظاهر الحكم، ولا تدفعه كثرة النعم إلى هتك أسرار محارم الله عز وجل.

ومن علامات العارف الله : أن يستشعر أنه ما استقر في قلبه شيء أعظم من تعظيم الله وتوحيده، وتقديسه وتمجيده، واليقين بأن كل شيء بيده، وأن الأمر كله إليه أوله وآخره، حلوه ومره.

لأنه ما تلذذ القلب بشيء ألذ من محبة الله تعالى، والشوق إلى لقائه، واستشعار قربه ومعيته، وعونه وحفظه، **ولا تفكر العقل** في شيء أحسن من التفكر في آياته وآلائه، وأفعاله وتقديراته، وحكمته في تشريعاته ومخلوقاته، **ولا سمعت الأذن** أحلى من خطابه، وآياته كتابه، والحديث عنه وعن صفاته، **ولا نطقت اللسان** بشيء أعظم ولا ألذ من اسمه، ومن ذكره وشكره، والثناء عليه، **ولا نظرت العين** إلى شيء أحسن من النظر إلى إبداع مخلوقاته، والتأمل في آياته.

هذا في الدنيا وأما في الآخرة فاسمع ما ورد عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (**إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار، قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزوجل**)[متفق عليه].

ومن علامات العارف : أن يكون قلبه مرآة إذا نظر فيها الغيب الذي دعي إلى الإيمان به ، فعلى قدر جلاء تلك المرآة يتراءى له فيها الله سبحانه ، والدار الآخرة ، والجنة والنار ، والملائكة ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، كما قيل :

إذا سَكنَ الغديرُ على صفاءٍ … وجُنِّبَ أنْ يُحرِّكَه النسيمُ

بدتْ فيه السماءُ بلا امتراءٍ … كذاك الشمسُ تَبدو والنجومُ

كذاك قلوبُ أربابِ التجلِّي　　　يُرى في صفوِها اللهُ العظيمُ

قال ابن القيم رحمه الله - معلقا - : هذه رؤية المثل الأعلى .

ومن علامات المعرفة : أن تقوم وتضطجع على التأهب للقاء الله تعالى ، كما يجلس الذي شدّ أحماله وأزمع السفر على التأهب له ، ويقوم على ذلك ويضطجع عليه ، كما ينزل المسافر في المنزل - استراحة في الطريق البري - فهو قائم وجالس ومضطجع على التأهب .

وقيل للجنيد رحمه الله : إن أقواما يدعون المعرفة ، يقولون : إنهم يصلون بترك الحركات من باب البر والتقوى ؟ فقال الجنيد : هذا قول أقوام تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندي عظيم ، والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا ، إن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ، وإلى الله رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بيني وبينها .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى : لا يكون العارف عارفا حتى يكون كالأرض يطؤها البر والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شيء ، وكالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب .

ومن علامات العارف : أنه لا يطالب ولا يخاصم ، ولا يعاتب ، ولا يرى له على أحد فضلا ، ولا يرى له على أحد حقا .

ومن علاماته : أنه لا يأسف على فائت ، ولا يفرح لآت ؛ لأنه ينظر إلى الأشياء بعين الفناء والزوال ؛ لأنها في الحقيقة كالظلال والخيال .

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى : يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين : بكاء على نفسه ، وثناء على ربه .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى – معلقاً - : وهذا من أحسن الكلام ، فإنه يدل على معرفته بنفسه وعيوبه و آفاته ، وعلى معرفته بربه وكماله وجلاله ، فهو شديد الإزراء على نفسه ، لهج بالثناء على ربه .

وقال أبويزيد رحمه الله : إنما نالوا المعرفة بتضييع ما لهم والوقوف مع ما له .

يريد تضييع حظوظهم ، والوقوف مع حقوق الله سبحانه وتعالى ، فتغنيهم حقوقه عن حظوظهم .

وقال آخر: لا يكون العارف عارفا حتى لو أعطي ملك سليمان عليه السلام لم يشغله عن الله

طرفة عين ، وهذا يحتاج إلى شرح ، فإن ما هو دون ذلك يشغل القلب ، لكن يكون اشتغاله بغير الله لله ، فذلك اشتغال به سبحانه ؛ لأنه إذا اشتغل بغيره لأجله لم يشتغل عنه .

قال ابن عطاء رحمه الله : المعرفة على ثلاثة أركان : الهيبة والحياء والأنس .

وقيل لذي النون : بم عرفت الله ربك ؟ قال : عرفت ربي بربي ، ولولا ربي لما عرفت ربي .

وقيل لعبد الله بن المبارك : بماذا نعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه ، فأتى عبد الله بأصل المعرفة التي لا يصح لأحد معرفة ولا إقرار بالله سبحانه إلا به ، وهو المباينة والعلو على العرش .

*** *** ***

ومن علامات العارف : أن يعتزل الخلق بينه وبين الله - أي في باطنه مع مخالطتهم بظاهره - حتى كأنهم أموات لا يملكون له ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، ويعتزل نفسه بينه وبين الخلق ، حتى يكون بينهم بلا نفس ، وهذا معنى قول من قال : العارف يقطع الطريق بخطوتين : خطوة عن نفسه ، وخطوة عن الخلق .

وقيل : العارف ابن وقته ، وهذا من أحسن الكلام وأخصره ، فهو مشغول بوظيفة وقته عما مضى وصار في العدم ، وعما لم يدخل بعد في الوجود ، فهمه عمارة وقته الذي هو مادة حياته الباقية .

ومن علاماته : أنه مستأنس بربه ، مستوحش ممن يقطعه عنه ، ولهذا قيل : العارف من أنس بالله ، فأوحشه من الخلق ، و افتقر إلى الله فأغناه عنهم ، وذل لله فأعزه فيهم ، وتواضع لله فرفعه بينهم ، واستغنى بالله فأحوجهم إليه .

قال الدكتور محمد النابلسي : يقول لك المؤمن: أنا أسعد الناس وهو صادق، حتى قال لي أحدهم مرة عقب أدائه فريضة الحج: ليس على وجه الأرض من هو أسعد مني لكنه ذكي قال: إلا أن يكون أتقى مني، أنت موصول بالخالق، موصول بقيوم السموات والأرض، موصول بالرحمن الرحيم، موصول بصاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، موصول بجهة قوية، كن فيكون زل فيزول، هذا الاتصال بالله لا بد من أن ينعكس تجلياً بالتعبير الآخر بالتعبير القرآني سكينة، هذه السكينة التي تتنزل على قلب المؤمن يسعد بها الإنسان المؤمن ولو فقد كل شيء، ويشقى بفقدها ولو ملك كل شيء .

وقيل : مجالسة العارف بالله تدعوك من ست إلى ست، من الشك إلى اليقين، من الرياء إلى الإخلاص، من الغفلة إلى الذكر، من الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، من الكبر إلى التواضع، من سوء الطوية إلى النصيحة. انتهى كلام رحمه الله .

*** *** ***

المطلب الثالث

صفات القلب الموصول بالله تعالى

استفتح بكلام قيم للعلامة ابن القيم رحمه الله تعالى واسمعه وهو يقول في كتابه في طريق الهجرتين :

(فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى إلهه ومولاه واجتمع همه عليه متذكرا صفاته العلى وأسماءه الحسنى ومشاهدا له في اسمائه وصفاته قد تجلت على قلبه أنوارها فانصبغ قلبه بمعرفته ومحبته .

فبات جسمه في فراشه يتجافى عن مضجعه وقلبه قد أوى إلى مولاه وحبيبه فآواه إليه وأسجده بين يديه خاضعا خاشعا ذليلا منكسرا من كل جهة من جهاته فيا لها سجدة ما أشرفها من سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء .

وقيل لبعض العارفين أيسجد القلب بين يدي ربه قال أي والله بسجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة فشتان بين قلب يبيت عند ربه ، قد قطع في سفره إليه بيداء الأكوان وخرق حجب الطبيعة ، ولم يقف عند رسم ولا سكن إلى علم حتى دخل على ربه في داره فشاهد عز سلطانه وعظمة جلاله وعلو شأنه وبهاء كماله وهو مستو على عرشه ؛ يدبر أمر عباده وتصعد إليه شؤون العباد وتعرض عليه حوائجهم وأعمالهم ؛ فيأمر فيها بما يشاء فينزل الأمر من عنده نافذا فيشاهِدُ - العارف - المِلِكَ الحقَّ قيوما بنفسه مقيما لكل ما سواه غنيا عن كل من سواه وكل من سواه فقير إليه (يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) سورة الرحمن (29) يغفر ذنبا ويفرج كربا ويفك عانيا وينصر ضعيفا ويجبر كسيرا ويغني فقيرا ويميت ويحيي ويسعد ويشقي ويضل ويهدي وينعم على قوم ويسلب نعمته عن آخرين ويعز أقواما ويذل آخرين ويرفع أقواما ويضع آخرين .

ويشهده كما أخبر عنه أعلم الخلق به وأصدقهم - صلى الله عليه وسلم - في خبره حيث يقول في الحديث الصحيح (يمينُ اللهِ ملأَى ، لا يَغيضُها نفقةٌ ، سحَّاءُ باللَّيلِ والنَّهارِ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السَّماواتِ والأرضِ ، فإنَّه لم يَغِضْ ما في يمينِه) متفق عليه) اهـ .

***   ***   ***

وقال الغزالي رحمه الله تعالى [54]: مَنْ ذاقَ لذةَ المعرفةِ - بالله - انغمسَ في بحارِها وتركَ ما سِواها فإنَّ لذةَ معرفةِ اللهِ تعالى ومطالعةَ صِفاتهِ و أفعالَه ونظامَ مملكتهِ مَن أعلى علِّيّين إلى أسفلِ سافلين، خاليةٌ مِن المكدِّرات، ثم هي- المعرفة- أبديةٌ سرمديةٌ لا يقطعها الموتُ، لأنَّه لا يهدمُ محلَّها- وهو الروح - و إنَّما يغيّر أحوالَها ويقطعُ شواغِلَها وعوائِقَها، ويُخرجُها مِنْ حبسِها أمَّا أنْ يَعدِمَها فلا ، قال تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) سورة آل عمران (169) **والعلماءُ أعظمُ منهم منزلةً عندَ اللهِ تعالى.**

وبناءً على هذا الكلام الرائع نقول :

لا بد للعبد الذي عرف ربه أن يكون صاحب قلب موصول به سبحانه وقد استخرج بعض الباحثين صفات هذا القلب من خلال تتبعه للآيات القرآن والأحاديث النبوية فقال [55]:

- **قلب دائم الخوف من الله :**

الخوْف من الله هو الحاجز الذى يمنع القلب من الاستغراق فى الشَّهوات والملهيات، هو اللجام الذي يَمنع النفس من اتِّباع الهوى والوقوع فى سكرات الغفلة والمعصية، وحتى إذا ما أقدم عليْها بحكم ضعْفِه البشرى، فإنَّ سياط الخوف من الله كافية لترده لترجعه للتَّوبة والإنابة والاستغفار.

وهذا الخوف يدْفع إلى اليقظة الدَّائمة والانتِباه المستمرّ، فيُلزم نفسه أداء الطَّاعات، واجتِناب المحرَّمات، لا خوْف يهزّ المشاعِر ويرسل الدموع، ثم يمضي إلى حال سبيله ، في المعاصي ومنكبا على الشهوات المحرمة .

*** *** ***

فالقلب الموْصول بالله دائمُ التَّفكير في الخوف تعظيمًا لمقام الله، كما قال تعالى (ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) سورة إبرهيم (14) **.والخوف من التَّقصير في حق العبوديَّة، والخوْف من عاقبة الذُّنوب، والخوف من الموت وسكراته، من القبر ووحشته، من القيامة وأهوالها؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾** [الملك: 12].

54- نقلا عن كتابي الحكم الغزالية – الحكمة رقم (116) .

55- مقتبس بتصرف من مقال: قلب موصول بالله - د. هاني درغام – شبكة الألوكة الشرعية .

• قلب دائم الخشوع:

القلب الموصول بالله دائم الخضوع والانكِسار لله، ينكسِر بين يديْه في ذل وخشوع، يعترِف دومًا بضعْفه وعجْزه وفقره، يشكو دائمًا همَّه وغمَّه إلى مولاه، سريع التأثُّر بالموعظة، يعشَق السُّجود لأنَّ فيه انكسارًا لمولاه، مداوم على الذِّكر، رافع يديْه في فقر ومذلَّة إلى ربِّه قائلاً: (**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين**) [56].

ولسان حاله يقول: يا رب، افعل بي ما تشاء، كيفما تشاء، وقتما تشاء، فأنا عليك توكلت وبحكمك رضيت وإلى حكمتك ورحمتك اطمأننت .

• قلب دائم اللجوء إلى الله:

القلب الموصول بالله دائم الفرار إلى الله، كلَّما أصابه هم أو غم أو واجهَتْه مشكلة أو قصَّر في أمر من الأمور، فهو دائم اللجوء إلى الله، يشكو إليه استِحْواذ الشَّيطان وطغْيان الدنيا، والعودة للذنوب، يشكو إليه ظلم الآخرين، يناجي مولاه في كل وقت وحين، قلب فصار همه وهمته: ﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى**﴾ [طه: 84].

• قلب دائم التوبة:

قد يقع هذا القلب في المعاصي والسيئات، وقد يتعرَّض للهفوات والزلات؛ لكنَّه سرعان ما يعود إلى ربِّه بالتَّوبة والاستِغْفار، فيعلن ندمَه ويظهر حزنه وأسفه، ويبكي على تقصيره في حقِّ ربِّه، ويسارع لنيْل عفْوه ومغفرته؛ ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [آل عمران: 135].

*** *** ***

• قلب عدوه الغفلة (يفر من الغفلة ومجلس الغافلين) :

فالغفلة أشدُّ ما يُفسِد القلب، **فالقلب الغافل** معطَّل عن وظيفتِه، معطَّل عن الاتِعاظ والتأثُّر والاستجابة .

56- رواه النسائي في "السنن الكبرى" (147/6) وفي "عمل اليوم والليلة" (رق/46) ، والحاكم في "المستدرك" (730/1) ، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (112) ، وغيرهم. قال المنذري في "الترغيب والترهيب" (313/1) : إسناده صحيح . وقال الشيخ الألباني في "السلسلة الصحيحة" (رقم/227) : إسناده حسن .(موقع الإسلام سؤال وجواب) .

والقلب الغافِل هو الذي ينشغل بملذَّات الدُّنيا وشهواتِها، فيتعلَّق قلبه بالزَّوجة والأولاد والأموال والوظيفة، فلا يصبح في قلبه متَّسع لله.

لذا؛ **فالقلْب المؤصول بالله يكْرَه الغفلة**، فهو دائم الذكر لله في كل الأوقات، وقد تجرَّد من كل متاع الدنيا، فأصبح له ما يشغله عن اللَّهو واللَّغو، فلم يعُد في القلب متَّسع لغير الله.

إذن فالقلب الموصول : يكره المجالس التي يكثر فيها اللغط والكلام بغير ذكر الله تعالى لأنه يؤدي إلى قسوة القلب والفسوة هي أسوأ أمراض القلوب لأنه بها لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا ولا تؤثر فيه المواعظ ،قال تعالى **(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)** البقرة (74) .

***   ***   ***

- **قلب يكره التشاحن والتباغض:**

فهو سليم من الأحقاد والبغضاء، لا يخالطه حسدٌ أو غلّ، قلب يُحبُّ الخير للآخَرين؛ بل ويُؤْثِرهم على نفسِه، قلب مليء بالمودَّة والرَّحمة والعطف، يسعى لمساعدة الآخَرين وقضاء حوائجِهم، فهو دائم الحلم والعفو والصَّفح عن الناس، قلب يعفو عمَّن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه.

جاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو قال: قيل لرسول الله أي الناس أفضل؟ قال صلى الله عليه وسلم : **(كل مخموم القلب، صدوق اللسان)** قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: **(هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي، ولا غل، ولا حسد)**.[57]

- **قلب لا يعرف اليأس:**

فهو لا ييأس من رَوح الله، ولو أحاطتْ به الكروب واشتدَّ به الضيق؛ لأنَّه في طمأنينة من ثقتِه بالله، واثق في رحْمة الله وعوْنه وقدرته على كشْف الضر.

قال تعالى :**(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ**

57- رواه ابن ماجه: 4216، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه:(3397).

حَسْبُهُ) . الطلاق (2-3) وقال تعالى :(**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)** الطلاق (4) .

قلب لا يعترِف بالهزيمة والفشَل: لأنَّه متيقِّن أنَّ قدر الله دائمًا ينفذ، دائمًا يغير ويبدل، فرج بعد ضيق، عسر بعد يسر، فهو يسير ويستشعِر يد الله وهي تقود خطاه وتَهديه السَّبيل.

ولذا قال صلى الله عليه وسلم : **(المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان)** رواه مسلم .

- **قلب معلق بالآخرة :**

فهو يعلم أنَّ الحياة على ظهر الأرض تليق بالدِّيدان والحشَرات والزَّواحف والأنعام، أمَّا الحياة للآخِرة فهي الحياة الحقيقيَّة اللائقة بالإنسان الكريم، الذي خلقه الله ونفخ فيه من روحه.

لذا؛ فإنَّه يتعامل مع الدُّنيا على أنَّها قصيرة عاجلة، هزيلة ذاهبة، حقيرة تافهة، فلا يتلهَّف على تحصيلها، ولا يحزن على فواتها ونقصانها.

ويترك التَّشاحُن والتَّنافُس من أجلِها، فلا تستغرق أوْقاته وتفكيره، فقد جعل الآخِرة أكبر همِّه وغاية آمالِه وطموحاته؛ ﴿وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 64].

***   ***   ***

قال الشافعي رحمه الله (فيما نسب إليه) :

سَأَتْرُكُ حُبَّكُمْ مِنْ غَيْرِ بُغْضٍ	وَذَاكَ لِكَثْرَةِ الشُّرَكَاءِ فِيهِ
إِذَا سَقَطَ الذُّبَابُ عَلَى طَعَامٍ	رَفَعْتُ يَدِي وَنَفْسِي تَشْتَهِيهِ
وَتَجتنب الأُسُودُ وُرُودَ مَاءٍ	إِذَا كَانَ الكِلاَبُ ولغنَ فِيهِ
وَيَرْتَجِعُ الكَرِيمُ خَمِيصَ بَطْنٍ	وَلاَ يَرْضَى مُسَاهَمَةَ السَّفِيهِ

وقال علي رضي الله عنه فيما نسب إليه :

لا تَخضَعَنَّ لِمَخلوقٍ عَلى طَمَعٍ	فَإِنَّ ذَلِكَ وَهنٌ مِنكَ في الدينِ
وَاَسترزِقِ اللَهَ مِمّا في خَزائِنِهِ	فَإِنَّما الأَمرُ بَينَ الكافِ وَالنونِ

إِنَّ الَّذي أَنتَ تَرجوهُ وَتَأمَلُهُ   مِنَ البَرِيَّةِ مِسكينُ اِبنُ مِسكينِ

*** *** ***

• **قلب لا يعرف الراحة:**

فقدِ استطاع أن ينتصر على شهواته وملذَّاته، ونجح في تحرير النَّفس من الهوى وحبِّ الراحة والشعور بثقل التكاليف، فتراه يُسابق في الخيرات، يُسارع إلى الطَّاعات.لا يكاد يلمح بابًا من أبواب الخير إلاَّ وينطلق إليه، فهو دائمًا يكْدح ويتعب في الطريق إلى ربّه ليلقاه بِمؤهلات تبعد عنه كبد الحياة، وتنتهي به إلى الرَّاحة الكبرى في ظلال الله؛ ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: 133].

وأختم بكلام قيّم للعلامة ابن القيم رحمه الله تعالى حيث يقول في كتاب الفوائد :

فائدة : من الناس من يعرف الله بالجود والإفضال والإحسان . ومنهم من يعرفه بالعفو والحلم والتجاوز . ومنهم من يعرفه بالبطش والانتقام ومنهم من يعرفه بالعلم والحكمة ومنهم من يعرفه بالعزة والكبرياء ومنهم من يعرفه بالرحمة والبر واللطف .

ومنهم من يعرفه بالقهر والملك ومنهم من يعرفه بإجابة دعوته وإغاثة لهفته وقضاء حاجته .

وأعم هؤلاء معرفة من عرفه من كلامه فإنه يعرف ربّاً قد اجتمعت له صفات الكمال ونعوت الجلال منزه عن المثال برئ من النقائص والعيوب له كل اسم حسن وكل وصف كمال فعال لما يريد فوق كل شيء ومع كل شيء وقادرٌ على كل شيء ومقيمٌ لكل شيء آمرٌ ناهٍ متكلِّمٌ بكلماته الدينية والكونية أكبر من كل شيء وأجمل من كل شيء ، أرحم الراحمين و أقدر القادرين وأحكم الحاكمين فالقرآن أنزله لتعريف عباده به وبصراطه الموصِّل إليه وبحال السالكين بعد الوصول إليه .

ويقول في موطن آخر من كتابه الفوائد أيضا :

ومن أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال وهي معرفة خواص الخلق وكلهم عرفه بصفة من صفاته وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه ليس كمثله شيء في سائر صفاته ولو فرضت الخلق كلهم على أجملهم صورة وكلهم على تلك الصورة ونسبت جمالهم الظاهر والباطن إلى جمال الرب سبحانه لكان أقل من نسبة سراج ضعيف إلى قرص الشمس .

ويكفي في جماله أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه.[58]

ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال .

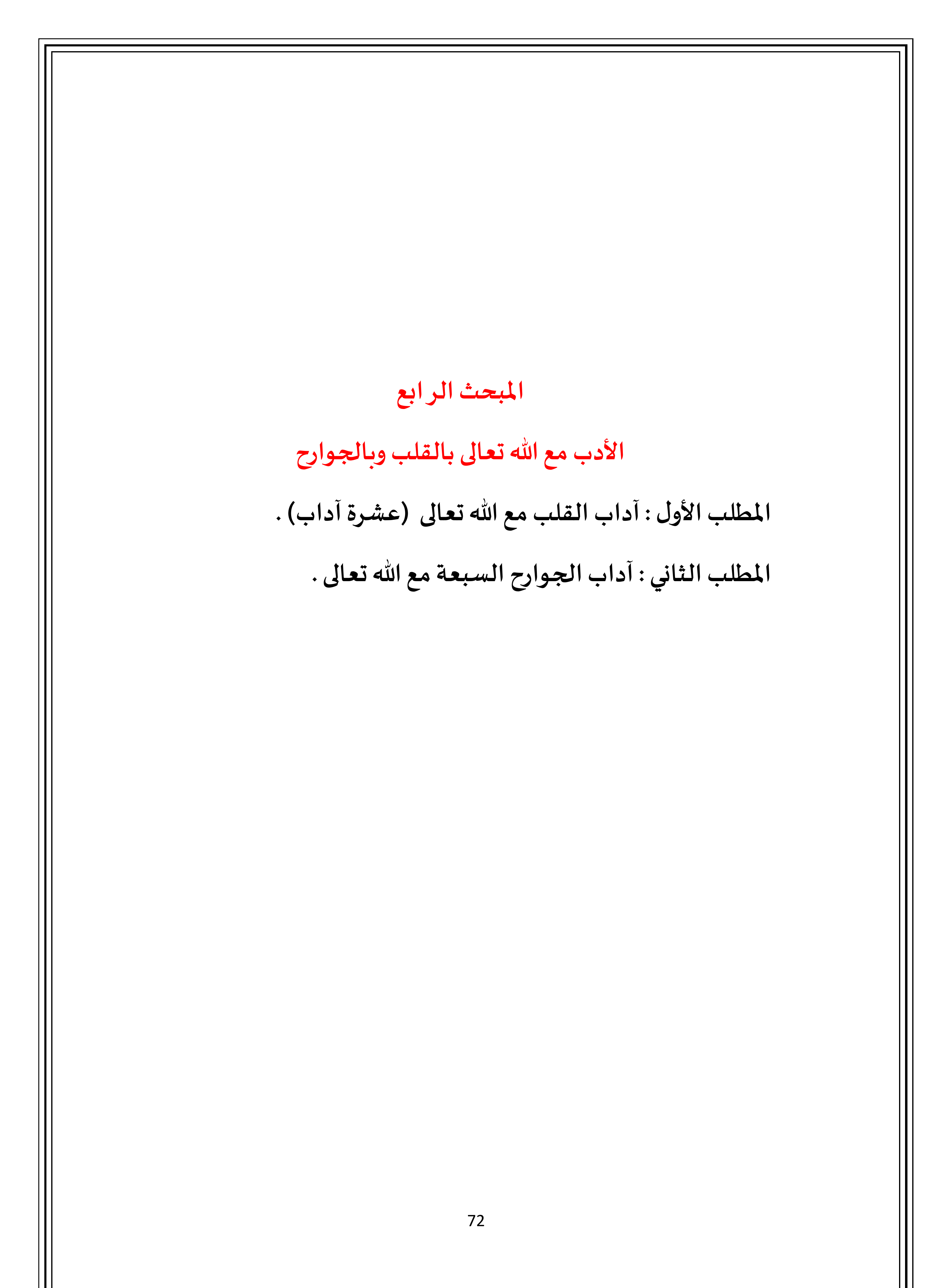
ويكفي في جماله أنه له العزة جميعا والقوة جميعا والجود كله والإحسان كله والعلم كله والفضل كله ولنور وجهه أشرقت الظلمات كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الطائف **أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة**.[59]

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ليس عند ربكم ليل ولا نهار نور السموات والأرض من نور وجهه فهو سبحانه نور السموات والأرض ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء وتشرق الأرض بنوره ومن أسمائه الحسنى الجميل وفي الصحيح عنه إن الله جميل يحب الجمال .

*** *** ***

58- هذا جزء من حديث رواه مسلم ونصه قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله عزوجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط، ويرفعه، ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) .

59- هذا جزء من حديث ونصه قال صلى الله عليه وسلم : (اللَّهُمَّ إليكَ أشْكو ضَعفَ قُوَّتي وقِلةَ حيلَتي وهَواني على الناسِ يا أرحَمَ الراحِمينَ، أنتَ أرحَمُ الراحِمينَ، و أنتَ ربُّ المُستَضعَفينَ، إلى مَن تَكِلُني إلى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُني يَلْقاني بالغِلْظةِ والوَجهِ الكَريهِ، أمْ إلى صَديقٍ قَريبٍ مَلَّكْتَه أمْري، إنْ لم يكُنْ بكَ غَضَبٌ عليَّ فلا أُبالي، غيرَ أنَّ عافيتَكَ أوسَعُ لي، أعوذُ بنورِ وَجْهِكَ الذي أضاءَتْ له السمَواتُ، وأشرَقَتْ له الظلُماتُ، وصلَحَ عليه أمرُ الدُّنيا والآخِرةِ أنْ يَنزِلَ بي غضَبُكَ، أو يَحِلَّ بي سَخَطُكَ، ولكَ العُتْبى حتى تَرْضى، ولا حَولَ ولا قُوةَ إلَّا بكَ). ذكره ابن القيم في زاد المعاد، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تخريجه : رجاله ثقات إلا أن فيه تدليس ابن إسحاق .



المبحث الرابع

الأدب مع الله تعالى بالقلب وبالجوارح

المطلب الأول : آداب القلب مع الله تعالى (عشرة آداب) .

المطلب الثاني : آداب الجوارح السبعة مع الله تعالى .

المطلب الأول

آداب القلب مع الله تعالى (عشرة آداب)

لا بد من الأدب مع الله تعالى بعد التحقق من معرفته ، وقد أوصلها بعض العلماء إلى عشرة ،ويمكن إجمالها في جملتين : مراقبته في الظاهر والباطن وتعظيم شرعه ولكن سأشير إلى تلك العشرة هنا بشئ من التفصيل في بعضها [60] :

الأدب الأول : الإيمان بالقلب، والنُّطق باللسان: بأن الله إله واحد، لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولَد له، ولا والد له، ولا صاحِبة له، ولا شريك له. ليس لأوَّليته ابتداء، ولا لآخِريَّته انقضاء، لا يَبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يُحيط بأمره المتفكِّرون، يعتبر المُتفكِّرون بآياته، ولا يتفكرون في ماهية ذاته،[61]قال تعالى : ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ [البقرة: 255].

الأدب الثاني: الإيمان بما وصَف به نفسَه في كتابه، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم مِن غير تحريف ولا تعطيل، ومِن غير تكييف ولا تَمثيل، ولا تعطيل ولا تشبيه.

الأدب الثالث: التصديق بكل ما أخبَرَ به : - سبحانه - في كتابه العظيم، أو على لسان رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - عن أسمائه وصفاته وعن الآخِرة، و أنه - سبحانه - قد خلَق الجنَّة فأعدَّها دار خلود للمتقين، وخلق النار فأعدها دار خلود لَمَن كفَر به وألحَد في آياته وكُتبِه ورسله، وجعلهم محجوبين عن رؤيته.

*** *** ***

الأدب الرابع : إخلاص العبادة له : فهو لا شريك له في عبادته ولا نِدَّ ولا نظير، فأعظم الأدب: توحيد الله، والإخلاص له، وأعظم سوء الأدب: الشِّرك بالله وصَرْف بعض العِبادة لغيره سبحانه وتعالى يقول الله - جل وعلا -: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ**﴾ [الإسراء: 23] .

60- مجموعة مقالات وأصلها : مقال الأدب مع الله جل جلاله - ربيع شكير – شبكة الألوكة الشرعية – بتصرف وزيادات .

61- مِن مُقدِّمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني.

ويقول سبحانه : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: 5]، ويقول سبحانه : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36].

الأدب الخامس : التذلُّل والخضوع، والرهبة والرغبة والخشوع : قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90].

وهذه المعاني مطلوبة عند ذكره تعالى وتلاوة كلامه والوقوف بين يديه في الصلاة ، وفي ذلك يقول حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى :

(وأحضر قلبك ما أنت فيه - يعني الصلاة - وفرغه من الوسواس، وانظر بين يدي من تقوم، ومن تناجي، واستح أن تناجى مولاك بقلب غافل، وصدر مشحون بوساوس الدنيا وخبائث الشهوات.

واعلم أنه تعالى مطلع على سريرتك وناظر إلى قلبك، فإنما يتقبل الله من صلاتك بقدر خشوعك وخضوعك وتواضعك وتضرعك، واعبده في صلاتك كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

فإن لم يحضر قلبك ولم تسكن جوارحك لقصور معرفتك بجلال الله تعالى، فقدِّر - تخيَّلْ - أن رجلا صالحا من وجوه أهل بيتك ينظر إليك ليعلم كيف صلاتك، فعند ذلك يحضر قلبك وتسكن جوارحك، ثم ارجع إلى نفسك وقل: يا نفس السوء الا تستحين من خالقك ومولاك، إذ قدرت اطلاع عبد ذليل من عباده عليك، وليس بيده ضرك ولا نفعك خشعت جوارحك وحسنت صلاتك، ثم إنك تعلمين أنه مطلع عليك، ولا تخشعين لعظمته، أهو - تعالى - عندك أقل من عباده؟! فما أشد طغيانك وجهلكّ وما أعظم عداوتك لنفسك. وعالج قلبك بهذه الحيل فعسى أن يحضر معك في صلاتك؛ فإنه ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها، وأما ما أتيت مع الغفلة والسهو فهو إلى الاستغفار والتكفير أحوج)[62].

*** *** ***

الأدب السادس : تعلق القلب بالرب بالوصول إلى مقامي الخوف والرجاء :

لقد ذكر الله تعالى الخوف مقرونًا بالرجاء في كتابه الكريم في مواضع كثيرة؛ منها قول الله - جلَّ جلاله -: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاء ٱلَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ ٱلآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو ٱلأَلْبَابِ} [الزمر: 9]، وقوله تعالى: {ٱعْلَمُواْ أَنَّ

62- بداية الهداية – للغزالي .

ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌرَّحِيمٌ} [المائدة: 98]، وقوله تعالى: {نَبِّىء عِبَادِى أَنِّى أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ*وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلأَلِيمُ} [الحجر: 49، 50].

وقوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً} [الإسراء: 57]، وقوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا} [الأنبياء: 90]، وكما في قوله - سبحانه -: {يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا} [السجدة: 16].

وعن أنَسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه : أن النبي - صلَّى اللهُ عليْه وسلَّم - دخل على شابٍّ وهو في المَوْتِ، فقَالَ: (كيف تَجِدُكَ؟) قالَ: واللهِ يا رسولَ اللهِ، إنِّي أَرْجُو اللهَ، وإنِّي أخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صلَّى اللهُ عليْه وسلَّم -: (لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ؛ إلاَّ أعْطَاهُ اللهُ ما يَرْجُو، وآمَنَهُ ممَّا يَخَافُ) [63].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي - صلَّى اللهُ عليْه وسلَّم -: (يقول الله - عزَّوجلَّ -: وعزَّتي، لا أجمع على عبدي خوفَين، ولا أجْمع له أمنَين، إذا أمِنَني في الدُّنيا، أخفتُه يوم القيامة، وإذا خافني في الدُّنيا، أمنته يوم القيامة) [64].

وقد اختلفت عباراتُ العلماء في تعريف الخوف والرجاء:

- **فقيل: الخوف توقُّع العقوبة على مجاري الأنفاس.**
- **وقيل: الخوف قوَّة العلم بِمجاري الأحكام.**
- **وقيل: الخوف هَرَبُ القلب من حلول المكْروه عند استشعاره.**
- **وقيل: الخوف غمٌّ يلحق النفس؛ لتوقُّع مكروه.**

أمَّا الرجاء فقد قال العلماء في حدِّه :

- **الرجاء حادٍ يحدو القُلوب إلى بلاد المحبوب، وهو الله والدَّار الآخرة، ويُطَيِّب لها السير.**
- **وقيل : هو الاستِبْشار بِجود فضل الربِّ - تبارك وتعالى - والارتياح لمطالعة كرمه - سبحانه.**

63- أخرجه التِّرمذي وقال: حسن غريب، والنسائي في "الكبرى"، و ابن ماجه، وقال الألباني: حسنٌ صحيح "صحيح الترغيب والترهيب" (رقم 3383).

64- رواه البيْهقي في "شعب الإيمان"، وصحَّحه الألباني .

• وقيل : هو الثِّقة بجود الرب تعالى.

• وقيل : هو النَّظر إلى سعة رحمة الله [65].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : "القلب في سيره إلى الله - عزَّ وجلَّ - بمنزلة الطَّائر؛ فالمحبَّة رأسه، والخوف والرَّجاء جناحاه، فمتى سلِم الرَّأس والجناحان، فالطائر جيّدُ الطيران، ومتى قطع الرأس، مات الطائر، ومتى فقد الجناحان، فهو عرضة لكل صائدٍ وكاسر".

وقال حافظ الحكمي رحمه الله تعالى في "المنظومة الميميَّة في الوصايا والآداب العلمية":

وَ اقْنُتْ وَبَيْنَ الرَّجَا وَالخَوْفِ قُمْ أَبَدًا ... تَخْشَى الذُّنُوبَ وَتَرْجُو عَفْوَ ذِي الكَرَمِ

فَالخَوْفُ مَا أَوْرَثَ التَّقْوَى وَحَثَّ عَلَى ... مَرْضَاةِ رَبِّي وَهَجْرِ الإِثْمِ وَالأَثِمِ [66]

كَذَا الرَّجَا مَا عَلَى هَذَا يَحُثُّ لِتَصْـ ... ـدِيقِ بِمَوْعُودِ رَبِّي بِالجَزَا العَظِمِ

وَالخَوْفُ إِنْ زَادَ أَفْضَى لِلقُنُوطِ كَمَا ... يُفْضِي الرَّجَاءُ لأَمْنِ المَكْرِ وَالنِّقَمِ

فَلا تُفَرِّطْ وَلا تُفْرِطْ وَكُنْ وَسَطًا ... وَمِثْلَ مَا أَمَرَ الرَّحْمَنُ فَاسْتَقِمِ

سَدِّدْ وَقَارِبْ وَ أَبْشِرْ وَاسْتَعِنْ بِغُدُوْ ... وِ وَالرَّوَاحِ وَأَدْلِجْ قَاصِدًا وَدُمِ

فَمِثْلَمَا خَانَتِ الكَسْلانَ هِمَّتُهُ ... فَطَالَمَا حُرِمَ المُنْبَتُّ بِالسَّأَمِ

*** *** ***

الأدب السابع : امتثال ما أمَره تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم : **واجتناب ما نهَى عنه، وتحكيمه في كل شيء، والتسليم له في كل أمر**؛ لأن المسلم يعتقد اعتقادا جازما أن جميع ما على وجه الأرض من ديانات [67] سماوية أو غير سماوية جميعها ديانات باطلة لا يجوز التعبد لله -عز وجل- بشيء منها، فالحق والهدى والنور في دين الإسلام الدين الخاتم، وجميع الطرق التي توصل إلى جنة الله ورحمته ومرضاته؛ بل وإلى السعادة في الدنيا والآخرة، كلها طرق مسدودة مغلقة لا

65- تفصيل ذلك في "مدارج السَّالكين" لابن القيم (1/507-513).

66- قوله (وَهَجْرِالإِثْمِ) أي ترك المعاصي وأما قوله (والأَثِمِ) أي الإنسان كثير الوقوع في الإثم فيجب هجره لفجوره خشية التأثر بفجوره .

67- هذه الكلمة غير سديدة والصواب أن يقال تشريعات أو قوانين - و أثبتها للتنبيه عليها لكثرة تداولها - لأن الدين عند الله تعالى واحد وهو الإسلام ، قال تعالى (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ) سورة آل عمران (19) .

توصل إلّا إلى سراب ووهم، إلا طريقا واحدا وسبيلا واحدا، إنه طريق الإسلام والإيمان، الذي مَن سلكه وسار عليه تحققت له السعادة في الدنيا والآخرة، وأدرك الفوز العظيم، والفلاح الكبير: **(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)** [طه:123-124].

إن الشهادة للنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- بالرسالة تقتضي من كل مسلم يدين بهذه الشهادة أن يعتقد اعتقادا جازما مقرونا بالعمل أن الله -عز وجل- لا يقبل من العباد قربة ولا طاعة ولا عبادة، مهما كانت، في الأقوال والأفعال، في الصلاة والزكاة، في الصوم والحج، في أي جانب من جوانب التعبد والتقرب، لا يقبل الله من أحد التعبد بها والتقرب إليه -سبحانه- بها إلا إذا كانت هذه العبادة والقربة والطاعة وهذا التدين شرعه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقوله أو فعله أو تقريره.

*** *** ***

الأدب الثامن: الحياء منه سبحانه وتعالى : وذلك بترك قبائح الذنوب، وعدم التقصير في الأوامر والحُقوق، والاعتراف له بالفضل والنِّعَم - سبحانه وتعالى - وحِفظ ذلك بالسرِّ والعلَن؛ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (**الحياء كلُّه خير**)[رواه مسلم].

والحياء من الله تعالى خلقٌ كريم وخصلة عظيمة تنشأ عن أمور ثلاثة :

الأول : رؤية نعمة الله تبارك وتعالى عليك ومنته وفضله.

الثاني : رؤيتك تقصيرَك في حقه وقيامك بما يجب لك عليه سبحانه من امتثال المأمور وترك المحظور.

الثالث : أن تعلم أنه تبارك وتعالى مطلع عليك في كل حال، وفي أي وقت من الأوقات وأينما تكون، فهو لا تخفى عليه منك خافية.

فإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة في القلب، تحرك في القلب حياء من الله، حياء عظيم من الله تبارك وتعالى، ثم عن هذا الحياء ينشأ كل خير وكلُّ فضيلة، كما قال صلى الله عليه وسلم:(الحياء لا يأتي إلا بخير) متفق عليه .

فإذا وجد في القلب الحياء من الله جلّ وعلا، انكفَّت النفس عن الأخلاق الرذيلة، والمعاملات السيئة والأفعال المحرمة، وأقبلت النفس على فعل الواجبات، والعناية بمكارم الأخلاق وعظيم الآداب وجميلها.

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود الهذلي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(**استحيوا من الله حق الحياء**)،قال: قلنا يا رسول الله إنا لنستحيي والحمد لله، فقال صلى الله عليه وسلم :(**ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى، وأن تحفظ البطن وما حوى، وأن تذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحيا**)[68].

وقوله صلى الله عليه وسلم : (أن تحفظ الرأس وما وعى)،فالرأس عباد الله فيه السمع والبصر واللسان، وفيه الشم وفيه حواس العبد أو جملة من حواسه، ومطلوب من العبد إذا كان يستحيي من الله أن يحفظ جميع الرأس وما حواه، أن يحفظ سمعه فلا يسمع به ما يسخط الله حياءً من الله، وأن يحفظ بصره فلا ينظر فيه إلى ما يغضب الله حياءً من الله تبارك وتعالى، وأن يحفظ لسانه فلا يتكلم فيه بما يسخط الله حياء من الله تبارك وتعالى، ومن الحياء أن تحفظ البطن وما حوى ومن أعظم ما حواه البطن القلب.

فقلبك عبدَ الله أعظم ما ينبغي أن تحقق فيه الحياء من الله، بل هو موطن الحياء ومنبع الحياء وأساس الحياء، وإذا تحقق في القلب الحياء من الله، صلحت الجوارح كلها، كما قال صلى الله عليه وسلم :(**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**)،ومن تحقيق الحياء لله من الله عز وجل أن لا يشتغل العبد بفتن الدنيا ومغرياتها وملهياتها، بل يتذكر أنه سيلقى الله، وأنه سيغادر هذه الحياة، وأنه سيُدرَجُ يوما من الأيام في قبر، وحيداً ليس معه إلا عمله الصالح [69].

68- رواه الإمام الترمذي في جامعه وهو حديث حسن بما له من الشواهد .

69- مقتبس من خطبة بعنوان : الحياء من الله تعالى -للشيخ عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر– شبكة الألوكة .

الأدب التاسع: حَمدُ الله تعالى وشُكرُه والثناء عليه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**إن الله ليَرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيَحمده عليها، أويَشرب الشربة فيَحمده عليها**)[رواه مسلم: 2734].

قال ابن القيم رحمه الله - في مدارج السالكين - : وحقيقة الشكر : ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافا وعلى قلبه: شهودا ومحبة وعلى جوارحه: انقيادا وطاعة، والشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره. فهذه الخمس هي أساس الشكر وبناؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة، وكل من تكلم في الشكر وحده فكلامه إليها يرجع وعليها يدور. اهـ.

إن شكر الله هو نعمةٌ يمنُّ بها الله على من يشاء من عباده، فيكون من الشاكرين: (**رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ**) [الأحقاف:15].

فقيدوا نعم الله بالشكر، واستزيدوا منها بشكرها: (**لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**) [إبراهيم:7].

شكر الله وفق له أناس فلا يزالون معترفين لله بفضله، فقلوبهم شاكرة، ثم يثنون على الله بنعمه بألسنتهم، وهو من التحديث الذي أمر الله به: (**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**) [الضحى:11].

ولكن باباً من أبواب الشكر غفلنا عنه، وهو شكر الله بجوارحنا، واستعمال النعمة فيما يرضي خالقنا، فلم يشكر من استخدم قوته فيما يسخط الله... أو أنه وفر صحته للسهر الطويل، والتخبط فيما يقسي قلبه، ويبعده عن ربه، فلم يحفظ بصراً ولا سمعاً، ولم يصن منطقاً، وقد علم حرمة الأعراض، وكبر إثم الغيبة والنميمة والسباب؛ فأي نعمة يعيشها الإنسان وهو لم يقم بشكرها فهي نذير خطر على صاحبها.[70]

***   ***   ***

الأدب العاشر: تعظيم شرعه ودينه؛ قال سبحانه : ﴿**ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ**﴾ [الحج: 30]، وقال سبحانه : ﴿**وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ [الحج: 32].

ولما كانَ في نُصوصِ الشَريعةِ وأَحكَامِها ما يُخالِفُ شَهواتِ بَعضِ الناسِ وشُبهَاتِهم كان تَلقِيهُم لتِلكَ النصُوصِ والأَحكامِ مَصحُوباً بنوعٍ من التَردُدِ والتَقاعُسِ مع التَثاقُلِ والحَرجِ في صُدُورِهم، هذا إن

70- خطبة بعنوان : شكر الله تعالى الشيخ د. : عبد الرحمن بن صالح الدهش – ملتقى الخطباء .

لم يدفعوا تِلكَ الأَحكامَ الشرعيةَ بالكُليةِ أو يتعسفوا ويتحذلقوا بتأويلِ نُصُوصِ الشرعِ والتَحايُلِ عليها في سبيلِ تَحقيقِ شُبهاتِهم وشَهواتِهم.

وهذا المزلقُ الخطيرُ لا يُستَغربُ حينَ يَصدرُ ممن ليسَ لهم حظٌ في الإسلامِ من اليهودِ والنصارى وأَشياعِهم؛ فهم كما قال الله، ولكنَ الغريبَ في ذلكَ أن يَنزلِقَ في هذا المسلكِ الخطيرِ بَعضُ المسلمينَ ممن فَرِحُوا بما عِندهم من العِلمِ الدنيويِّ فأخذوا يَزِنُونَ النصوصَ الشرعيةِ بِميزانِ عقولِهم؛ فما وافقَ عُقولَهَم قَبلوهُ وما لم يُوافق عُقولَهَم أَولُوهُ وحَرفوهُ بما يُوافقُ الهوى؛ فجعلوا عُقولَهم حاكمةً مُهيمنةً على الشرعِ ومستهينةً بالسنةِ؛ فلم يعد لهذهِ النصوصِ الشرعيةِ والسُنَنِ النبويةِ في قلوبهم تَعظيماً أو تَقديساً أو انقياداً.

وقَلَّ احترامُ النصِ الشرعيِّ خصوصاً الحديثُ النبويِّ الصَحيحُ و السُنةِ النَبويةِ من صلاةِ وصيامٍ وغيرِها من العباداتِ، وكذلك آراءُ العلماءِ المبنيةِ على النَصِ والإجماعِ؛ ترى تَهاوناً بها وتَناولاً غيرَ جيدٍ لها، بل تجدُ من الناسِ من يفتي بالأحكامِ الشرعيةِ ويتكلمُ بالأُصُولِ الفقهيةِ في المجالسِ والحِواراتِ الصَحفيةِ؛ كالقاعدةِ الفقهيةِ بِسدِّ الذرائعِ وتغليبِ المصالحِ، ودرءِ المفاسدِ، وكأنَّهُ الفقيهُ المتَبَحِرُ وهذا ولا شَكَ خَطأٌ و تجاوزٌ على الأَحكامِ الشرعيةِ وكَلامٌ في غيرِ مَكانهِ و من غيرِ أَهلهِ وهو تَطَاولٌ على الشرعِ وقواعدهِ حين ترى أَحداً ليسَ من أَهلِ العلمِ سَمعَ مقالةً لأحدٍ أو قرأَها ثم يُجادلُ في الأَحكامِ الشرعيةِ وكأَنهُ العالمُ المتبحر.

والأصل أنَّ تعظيمَ الربِّ -تعالى- وتمجيدهِ مُستلزمٌ لتعظيمِ أَحكامِهِ ونصُوصِ شرعِهِ من القرآنِ والسُنةِ؛ قال الإمامُ ابن القيمِ -رحمه الله-: :أولُ مراتبِ تَعظيمِ الحقِ عز وجل تعظيمُ أَمرهِ ونهيهِ، فيكونُ تعظيمُ المؤمنِ لأمرِ اللهِ ونهيهِ دَالاً على تعظيمهِ لصاحبِ الأمرِ والنهي [71].

إن تعظيم الله جل شأنه فرع عن المعرفة بالله جل وعلا ؛ فكلما كان العبد أعظم معرفة بالله كان أشد لله تعظيما وأشد له إجلالا وأعظم له مخافة وتحقيقا لتقواه جل شأنه ، وإذا عظّم القلب ربه خضع له سبحانه و انقاد لحكمه وامتثل أمره وخضع له جل شأنه.

واعلم أن جميع صنوف الانحر افات و أنواع الأباطيل والضلالات في جميع الناس منشؤها من ضعف التعظيم لله أو انعدامه في القلوب.

*** *** ***

71- مقتبس من خطبة تعظيم النصوص الشرعية - للشيخ : عبد المحسن بن عبد الرحمن القاضي – موقع ملتقى الخطباء .

المطلب الثاني

آداب الجوارح السبعة مع الله تعالى

بينا في المطلب السابق آداب القلب مع الله تعالى فكان المناسب أن نذكر آداب الجوارح معه تعالى وقد بين الغزالي ذلك ببيان شاف فقال رحمه الله [72] : اعلم ان للدين شطرين:

أحدهما: ترك المناهي، والآخر: فعل الطاعات.. وترك المناهي هو الأشد؛ فإن الطاعات يقدر عليها كل واحد، وترك الشهوات لا يقدر عليه إلا الصديقون، فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المُهاجِرُ مَن هجَرَ السُّوءَ، والمُجاهِدُ مَن جاهَدَ هواهُ)[73] .

واعلم أنك إنما تعصي الله بجوارحك، وهي نعمة من الله عليك وأمانة لديك، فاستعانتك بنعمة الله على معصيته غاية الكفران[74]، وخيانتك في أمانة استودعها الله غاية الطغيان؛ فأعضاؤك رعاياك، فانظر كيف ترعاها؛ (فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته) [75].

واعلم أن جميع أعضائك ستشهد عليك في عرصات القيامة بلسان طلق ذلق، تفضحك به على رؤوس الخلائق، قال الله تعالى: (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) سورة النور (25).

وقال الله تعالى: (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) سورة يس (65) فاحفظ يا مسكين جميع بدنك من المعاصي، وخصوصا أعضاءك السبعة؛ فإن جهنم لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم، ولا يتعين لتلك الابواب إلا من عصا الله تعالى بهذه الاعضاء السبعة وهي: العين، والأذن، واللسان، والبطن، والفرج، واليد، والرجل.

72- بداية الهداية – لحجة الإسلام الغزالي .

73- صححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تخريجه لكتاب سير أعلام النبلاء – (19/ 338) .

74- الكفران : أي كفر النعمة وليس الكفر المخرج من الملة .

75- جزء من حديث متفق عليه ونصه قال صلى الله عليه وسلم (كُلُّكُمْ راعٍ ومَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، فالإمامُ راعٍ ومَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ في أهْلِهِ راعٍ وهو مَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والمَرْأَةُ في بَيْتِ زَوْجِها راعِيَةٌ وهي مَسْئُولَةٌ عن رَعِيَّتِها، والخادِمُ في مالِ سَيِّدِهِ راعٍ وهو مَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، قالَ: فَسَمِعْتُ هَؤُلاءِ مِنَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأَحْسِبُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: والرَّجُلُ في مالِ أبِيهِ راعٍ ومَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ).

آداب العين :

أما العين : فإنما خلقت لك لتهتدي بها في الظلمات، وتستعين بها في الحاجات، وتنظر بها إلى عجائب ملكوت الأرض والسموات، وتعتبر بما فيها من الآيات؛ فاحفظها عن أربع: أن تنظر بها إلى غير محرم، أو إلى صورة مليحة ولا بشهوة نفس، أو تنظر بها إلى مسلم بعين الاحتقار، أو تطلع بها على عيب مسلم.

***   ***   ***

آداب الأذن :

وأما الأذن : فاحفظها عن أن تصغي بها إلى البدعة، أو الغيبة، أو الفحش، أو الخوض في الباطل، أو ذكر مساوىء الناس؛ فإنما خلقت لك لتسمع بها كلام الله تعالى، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحكمة أوليائه، وتتوصل باستفادة العلم بها إلى الملك المقيم والنعيم الدائم في جوار رب العالمين.

فإذا أصغيت بها إلى شيء من المكاره صار ما كان لك عليك، و انقلب ما كان سبب فوزك سبب هلاكك، وهذا غاية الخسران. ولا تظن أن الإصم يختص به القائل دون المستمع؛ فغي الخبر: (إن المستمع شريك القائل وهو أحد المغتابين) [76].

آداب اللسان :

وأما اللسان: فإنما خلق لتكثر به ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه، وترشدن به خلق الله تعالى إلى طريقه، وتظهر به ما في ضميرك من حاجات دينك ودنياك. فإذا استعملته في غير ما خلق له، فقد كفرت نعمة الله تعالى فيه، وهو أغلب أعضائك عليك وعلى سائر الخلق، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم.

76- هذا الخبر ليس بحديث ولكنه منسوب لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال الإمام النووي: "اعلم أن الغيبة كما يحرم على المغتاب ذكرها، يحرم على السامع استماعها و إقرارها، فيجب على من سمع إنسانًا يبتدئ بغيبة محرمة أن ينهاه إن لم يخف ضررًا ظاهرًا، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه، ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته، فإن قدر على الإنكار بلسانه، أو على قطع الغيبة بكلام آخر لزمه ذلك، فإن لم يفعل عصى، ومتى اضطر إلى المقام في ذلك المجلس الذي فيه الغيبة وعجز عن الإنكار، أو أنكر فلم يقبل منه، ولم يمكنه المفارقة بطريق حرم عليه الاستماع والإصغاء للغيبة، بل طريقه أن يذكر الله تعالى بلسانه وقلبه، أو بقلبه، أو يفكر في أمر آخر ليشتغل عن استماعها، ولا يضره بعد ذلك السماع من غير استماع، وإصغاء في هذه الحالة المذكورة، فإن تمكن بعد ذلك من المفارقة وهم مستمرون في الغيبة ونحوها وجب عليه المفارقة."

فاستظهر عليه بغاية قوتك حتى لا يكبك في قعر جهنم، ففي الخبر: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها أصحابه فيهوي بها في قعر جهنم سبعين خريفا) [77]، وروى أنه قتل شهيد في المعركة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قائل:ن هنيئا له الجنة. فقال: صلى الله عليه وسلم: (وما يدريك لعله كان يتكلَّمُ فيما لا يَعنيه ويمنعُ ما لا يَضُرُّه) [78].

فاحفظ لسانك من ثمانية:

الأول : الكذب فاحفظ منه لسانك في الجد والهزل، ولا تعود لسانك الكذب هزلا فيتداعى إلى الجد، والكذب من أمهات الكبائر، ثم إنك إذا عرفت بذلك سقطت عدالتك والثقة بقولك، وتزدريك الأعين وتحتقرك.

وإذا أردت أن تعرف قبح الكذب من نفسك، فانظر إلى كذب غيرك، وعلى نفرة نفسك عنه، واستحقارك لصاحبه واستقباحك له.

وكذلك فافعل في جميع عيوب نفسك؛ فإنك لا ترى قبح عيوبك من نفسك، بل من غيرك، فما استقبحته من غيرك يستقبحه غيرك منك لا محلاة؛ فلا ترض لنفسك ذلك.

الثاني الخلف في الوعد :

فإياك أن تعد بشيء ولا تفي به، بل ينبغي أن يكون إحسانك إلى الناس فعلا بلا قول، فإن اضطررت إلى الوعد، فإياك أن تخلف إلا لعجز أو ضرورة؛ فإن ذلك من أمارات النفاق وخبائث الاخلاق، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه فهو منافقٌ وإنْ صام وصلَّى وزعَم أنَّه مسلمٌ: مَن إذا حدَّث كذَب وإذا وعَد أخلَف وإذا ائتُمِن خان)[79].

الثالث : الغيبة : وهي من الكبائر فاحفظ لسانك عنها، ومعنى الغيبة: أن تذكر إنسانا بما يكرهه لو سمعه، فأنت مغتاب ظالم وإن كنت صادقا.

77- رواه أحمد ، وفي البخاري قال صلى الله عليه وسلم (إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن رِضْوانِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بها دَرَجاتٍ، وإنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن سَخَطِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَهْوِي بها في جَهَنَّمَ).

78- أخرجه ابن أبي الدنيا في (الصمت) - رقم (109)، و أبو يعلى – رقم (4017)، والطحاوي في (شرح شكل الآثار) - رقم (2423) باختلاف يسير. وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء : إسناده ضعيف.(نقلا عن الموسوعة الحديثية – الدرر السنية) .

79- أخرجه ابن حبان في صحيحه وقال شعيب الأرناؤوط في تخريج صحيح ابن حبان : إسناده صحيح على شرط مسلم – حديث رقم (257) (نقلا عن الموسوعة الحديثية – الدرر السنية).

و إياك وغيبة القراء[80] المرائين، وهو أن تفهم المقصود من غير تصريح فتقول: أصلحه الله فقد ساءني وغمني ما جرى عليه، فنسأل الله تعالى أن يصلحنا و إياه؛ فإن هذا جمع بين خبيثين، أحدهما: الغيبة إذا حصل به التفهم، والآخر: تزكية النفس والثناء عليها بالتجريح لغيرك والصلاح لنفسك.

ولكن إن كان مقصودك من قولك: أصلحه الله - الدعاء؛ فادع له في السر. وإن اغتممت بسببه، فعلامة أنك لا تريد فضيحته واظهار عيبه، وفي إظهارك الغم بعيبه إظهار تعييبه.

ويكفيك زاجرا عن الغيبة قوله تعالى: (وَلا يَغتَب بَعضُكُم بَعضا، أَيُحِبُ أَحَدُكُم أَن يَأكُلَ لَحمَ أخيهِ مَيتا فَكَرِهتُموه). فقد شبهك الله بآكل لحم الميتة؛ فما أجدرك أن تحترز منها ؛ ويمنعك عن الغيبة أمر لو تفكَّرتَ فيه وهو أن تنظر في نفسك، هل فيك عيب ظاهر أو باطن؟

وهل أنت مقارف معصية سرا أو جهرا ؟ فإذا عرفت ذلك من نفسك، فاعلم أن عجزه عن التنزه عما نسبته إليه كعجزك، وعذره كعذرك. وكما تكره أن تفتضح وتذكر عيوبك، فهو أيضا يكرهه؛ فإن سترته ستر الله عليك عيوبك، وإن فضحته سلط الله عليك ألسنة حدادا، يمزقون عرضك في الدينا، ثم يفضك الله في الآخرة على رؤوس الخلائق يوم القيامة.

وإن نظرت إلى ظاهرك وباطنك، فلم تطلع فيهما على عيب ونقص في دين ولا دنيا، فاعلم أن جهلك بعيوب نفسك أقبح أنواع الحماقة، ولا عيب أعظم من الحمق.

ولو أراد الله بك خيرا لبصرك بعيوب نفسك، فرؤيتك نفسك بعين الرضا غاية غباوتك وجهلك. ثم إن كنت صادقا في ظنك فاشكر الله تعالى عليه ولا تفسده بثلب الناس، والتمضمض بأعراضهم؛ فإن ذلك من أعظم العيوب.

***   ***   ***

الرابع : المراء والجدال ومناقشة الناس في الكلام : فذلك فيه إيذاء للمخاطب وتجهيل له، وطعن فيه، وفيه ثناء على النفس وتزكية لها بمزيد الفطنة والعلم، ثم هو مشوش للعيش؛ فإنك لا تمارى سفيها إلا ويؤذيك، ولا تماري حليما إلا ويقليك - يجفوك ويهجرك - ويحقد عليك؛ **فقد قال صلى**

80- القراء في زمانه كالملتزمين في زماننا والمراد أن بعض الصالحين يغتاب إخوانه بطريق غير مباشر وذلك بإعطاء مقدمة للسامع ليقبل الغيبة فيقول مثلا : مسكين فلان حدث معه أمر غريب .. ثم يغتابه .

الله عليه وسلم : (أنا زعيمٌ ببَيْتٍ في رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَن ترَك المِراءَ وإنْ كان مُحِقًّا، وببَيْتٍ في وسَطِ الجَنَّةِ لِمَن ترَك الكَذِبَ وإن كان مازحًا، وببَيْتٍ في أعلى الجَنَّةِ لِمَن حَسُنَ خُلُقُه)[81] .

ولا ينبغي أن يخدعك الشيطان ويقول لك: أظهر الحق ولا تداهن فيه، فإن الشيطان أبداً يستجر الحمقى إلى الشر في معرض الخير، فلا تكن ضُحكة للشيطان فيسخر منك، فاظهار الحق حسن مع من يقبله منك، وذلك بطريق النصيحة في الخفية لا بطريق المماراة.

وللنصيحة صفة وهيئة، ويحتاج فيها إلى تلطف وإلا صارت فضيحة، وكان فسادها أكثر من صلاحها.

ومن خالط متفقهة العصر غلب على طبعه المراء والجدال، وعسر عليه الصمت، إذ ألقى إليه علماء السوء أن ذلك هو الفضل، والقدرة على المحاجة والمناقشة هو الذي يمتدح به؛ ففر منهم فرارك من الأسد، واعلم أن المراء سبب المقت عندالله وعند الخلق.

الخامس : تزكية النفس : فقد قال الله تعالى: (فَلا تُزَكوا أَنفُسَكُم هَو أَعلَمُ بِمَن اِتقى)، وقيل بعض الحكماء: ما الصدق القبيح؟ فقال: ثناء المرء على نفسه. فإياك أن تتعود ذلك، واعلم أن ذلك ينقص من قدرك عند الناس، ويوجب مقتك عند الله تعالى. فإذا أردت أن تعرف أن ثناءك على نفسك لا يزيد في قدرك عند غيرك، فانظرإلى أقرانك إذا أثنوا على أنفسهم بالفضل والجاه والمال كيف يستنكره قلبك عليهم، ويستثقله طبعك، وكيف تذمهم عليه إذا فارقتهم؛ فاعلم أنهم أيضا في حال تزكيتك لنفسك يذمونك في قلوبهم ناجزا، وسيظهرونه بألسنتهم إذا فارقتهم.

السادس: اللعن : فإياك أن تلعن شيئا مما خلق الله تعالى من حيوان أو طعام أو إنسان بعينه، ولا تقطع بشهادتك على أحد من أهل القبلة بشرك أو كفرأو نفاق؛ فإن المطلع على السرائرهو الله تعالى، فلا تدخل بين العباد وبين الله تعالى، واعلم أنك يوم القيامة لا يقال لك: لِم لمَ تلعن فلانا، ولم سكت عنه؟ بل لو لم تعلن ابليس طول عمرك، ولم تشغل لسانك بذكره لم تسأل عنه ولم تطالب به يوم القيامة. وإذا لعنت أحدا من خلق الله تعالى طولبت به، ولا تذم شيئا مما خلق الله تعالى، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يذم الطعام الردىء قط، بل كان إذا

81- رواه أبو داود في سننه وسكت عنه ، [وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح] . (نقلا عن الموسوعة الحديثية – الدرر السنية).

اشتهى شيئا أكله وإلا تركه.

السابع : الدعاء على الخلق : فاحفظ لسانك عن الدعاء على أحد من خلق الله تعالى، وإن ظلمك فكل أمره إلى الله تعالى ، فقدطول بعض الناس لسانه على الحجّاج فقال بعض السلف: (إن الله لينتقم للحجاج ممن تعرض له بلسانه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه).

الثامن : المزاح والسخرية والاستهزاء بالناس : فاحفظ لسانك منه، في الجد والهزل؛ فإنه يريق ماء الوجه ويسقط المهابة، ويستجر الوحشية، ويؤذي القلوب، وهو مبدأ اللجاج والغضب والتصارم، ويغرس الحقد في القلوب؛ فلا تمازح أحدا؛ فإن مازحك أحد فلا تجبه، وأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره، وكن من الذين إذا مروا باللغو مروا كراما [82].

فهذه مجامع آفات اللسان، ولا يعينك عليه إلا العزلة، أو ملازمة الصمت إلا بقدر الضرورة؛ فقد كان **أبوبكر الصديق رضي الله تعالى عنه يضع حجرا في فيه ليمنعه ذلك من الكلام بغير ضرورة، ويشير إلى لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. فاحترز منه بجهدك؛ فإنه أقوى أسباب هلاكك في الدنيا والآخرة.**

*** *** ***

آداب البطن :

وأما البطن : فاحفظه من تناول الحرام والشبهة، واحرص على طلب الحلال، فإذا وجدته فاحرص على أن تقتصر منه على ما دون الشبع، فإن الشبع يقسي القلب، ويفسد الذهن، ويبطل الحفظ، ويثقل الأعضاء عن العبادة والعلم، ويقوي الشهوات، وينصر جنود الشيطان.

والشبع من الحلال مبدأ كل شر، فكيف من الحرام وطلب الحلال فريضة على كل مسلم، والعبادة مع أكل الحرام كالبناء على السرجين[83] .

فإذا قنعت في السنة بقميص خشن وفي اليوم والليلة برغيفين، وتركت التلذذ بأطيب الأُدُم - الطبائخ - لم يعوزك من الحلال ما يكفيك، والحلال كثير.

82- يشير إلى قوله تعالى (وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) سورة الفرقان (63).

83- روث الحيوان، والكلمة معربة فأصلها فارسي "سركين" فنقلت إلى العربية فصار سرقين وسرجين. وسرجن الأرض سمدها بالسرجين .

وليس بعليك أن تتيقن بواطن الأمور، بل عليك أن تحترز مما تعلم أنه حرام أو تظن أنه حرام ظنا حصل من علامة ناجزة مقدرة بالمال؛ أما المعلوم فظاهر، وأما المظنون بعلامة فهو مال السلطان وعماله، ومال من لا كسب له إلا من النياحة، أو بيع الخمر، أو الربا، أو المزامير؛ وغير ذلك من آلات اللهو المحرمة. فإن من علمت أن أكثر ماله حرام قطعا، فما تأخذه من يده - وإن أمكن ان يكون حلالا نادرا - فهو حرام؛ لأنه الغالب على الظن.

ومن الحرام المحض ما يؤكل من الأوقاف من غير شرط الو اقف، فمن لم يشتغل بالتفقه فما يأخذه من المدارس حرام، ومن ارتكب معصية ترد بها شهادته.

وقد ذكرنا مداخل الشبهات والحلال والحرام في كتاب مفرد من كتب إحياء علوم الدين، فعليك بطلبه؛ فإن معرفة الحلال وطلبه فريضة على كل مسلم، كالصلوات الخمس.

*** *** ***

آداب الفرج :

وأما الفرج: فاحفظه عن كل ما حرم الله تعالى، وكن كما قال الله: (وَالذَينَ هُم لِفُروجِهِم حافِظون إلاّ عَلى أَزواجِهِم أو ما مَلَكَت أيمانُهُم غَيرُ مَلومين).

ولا تصل إلى حفظ الفرج إلا بحفظ العين عن النظر، وحفظ القلب عن التفكر، وحفظ البطن عن الشبهة وعن الشبع؛ فإن هذه محركات للشهوة ومغارسها.

آداب اليدين :

وأما اليدان: فاحفظهما عن أن تضرب بهما مسلما، أو تتناول بهما مالا حراما، أو تؤذي بهما أحدا من الخلق، أو تخون بهما في أمانة أو وديعة، أو تكتب بهما ما لا يجوز النطق به، فإن القلم أحد اللسانين، فاحفظ القلم عما يجب حفظ اللسان عنه.

آداب الرجلين :

وأما الرجلان : فاحفظهما عن أن تمشي بهما إلى حرام، أو تسعى بهما إلى باب سلطان ظالم؛ فإن المشي إلى السلاطين الظلمة من غير ضرورة وارهاق معصية كبيرة؛ فإنه تواضع و إكرام لهم على ظلمهم.

وقد أمر الله تعالى بالإعراض عنهم في قوله تعالى: (وَلا تَركَنوا إلى الَّذينَ ظَلَموا فَتَمَسَكُم النار) وهو تكثيرلسوادهم، وإن ذلك لسبب طلب مالهم فهو سعى إلى حرام.

آداب الجسد عموما مع الله تعالى :

قال الغزالي رحمه الله : فحركاتك وسكناتك بأعضائك نعمة من نعم الله تعالى عليك؛ فلا تحرك شيئا منها في معصية الله تعالى أصلا، واستعملها في طاعة الله تعالى.

واعلم أنك إن قصرت فعليك وباله، وإن شمرت فإليك تعود ثمرته، والله غني عنك وعن عملك، و إنما كل نفس بما كسبت رهينة، و إياك أن تقول: إن الله كريم رحيم يغفر الذنوب للعصاة؛ فإن هذه كلمة حق أريد بها باطل، وصاحبها ملقب بالحماقة، بتلقيب رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني) [84].

واعلم أن قولك هذا أيضا هي قول من يريد أن يكون فقيها في علوم الدين من غيرأن يدرس علما واشتغل بالبطالة وقال: إن الله كريم رحيم قادرعلى أن يفيض على قلبي من العلوم ما أفاضه على قلوب أنبيائه وأوليائه من غير جهد وتكرار وتعلم وهو كقول من يريد مالا فترك الحراثة والتجارة والكسب ويتعطل، وقال: إن الله كريم رحيم وله خزائن السموات والأرض وهو قادر على أن يطلعني على كنزمن كنوزأستغني به عن الكسب، فقد فعل ذلك لبعض عباده، فأنت إذا سمعت كلام هذين الرجلين استحمقتهما وسخرت منهما، وإن كان ما وصفاه من كرم الله تعالى وقدرته صدقا وحقا، فكذلك يضحك عليك أرباب البصائرفي الدين إذا طلبت المغفرة بغيرسعى لها، والله وتعالى يقول: (وَأَن لَيسَ لِلإِنسانِ إلا ما سَعى)، ويقول: (إنَما تُجزونَ ما كُنتُم تَعملون) ويقول (إنّ الأَبرارَلَفي نَعيم، وَإنّ الفُجارَلَفى جَحيم).

فإذا لم تكن تترك السعي في طلب العلم والمال اعتمادا على كرمه، فكذلك لا تترك التزود للآخرة، ولا تفتر؛ فإن رب الدنيا واللآخرة واحد، وهو فيهما كريم رحيم، وليس يزيد له كرم بطاعتك و إنما كرمه سبحانه وتعالى في أن ييسر لك طريق الوصول الى الملك المقيم والنعيم الدائم المخلد، بالصبرعلى ترك الشهوات أياما قلائل، وهذا نهاية الكرم.

---

[84]- قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء : قال العراقي: رواه الترمذي وقال حسن و ابن ماجه من حديث شداد بن أوس .

فلا تحدث نفسك بتهويسات البطالين، و اقتد بأولى العزم والنهي من الانبياء والصالحين، ولا تطمع في أن تحصد ما لم تزرع، وليت من صام وصلى وجاهد و اتقى غفر له.

فهذه جمل مما ينبغي أن تحفظ عنه جوارحك الظاهرة، وأعمال هذه الجوارح إنما تترشح من صفات القلب؛ فإن أردت حفظ الجوارح فعليك بتطهير القلب؛ فهو تقوى الباطن، والقلب هو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد[85] ، فاشتغل بإصلاحه لتصلح به جوارحك، وصلاحه يكون بملازمة المر اقبة.

*** *** ***

[85] -يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم (ألا وإنَّ في الجسدَ مُضغةً ، إذا صلُحَتْ صلُحَ الجسدُ كلُّه ، وإذا فسدت فسد الجسدُ كلُّه ، ألا وهي القلبُ) متفق عليه .

الخاتمة

مجموعة من الأشعار في الثناء على الله الواحد الغفار

قصيدة من ديوان سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه[86] :

لَكَ الحَمدُ يا ذا الجودِ والمَجدِ وَالعُلا　　تَبارَكتَ تُعطي مَن تَشاءَ وَتَمنَعُ

إِلَهي وَخَلّاقي وَحِرزي وَمَوئِلي　　إِلَيكَ لَدى الإِعسارِ وَاليُسرِ أَفزَعُ

إِلَهي لَئِن جُلتُ وَجَمَّت خَطيئَتي　　فَعَفوُكَ عَن ذَنبي أَجَلُّ وَأَوسَعُ

إِلَهي لَئِن أَعطَيتَ نَفسي سُؤلُها　　فَها أَنا في أَرضِ النَدامَةِ أَرتَعُ

إِلَهي تَرى حالي وَفَقري وَفاقَتي　　وَ أَنتَ مُناجاتي الخَفيَّةِ تَسمَعُ

إِلَهي فَلا تَقطَع رَجائي وَلا تُزِغ　　فُؤادي فَلي في سَيبِ جُودِكَ مَطمَعُ

إِلَهي لِئَن خَيَّبتَني أَو طَرَدتَني　　فَمَن ذا الَّذي أَرجو وَمَن لي يَشفَعُ

إِلَهي أَجِرني مِن عَذابِكَ إِنَّني　　أَسيرٌ ذَليلٌ خائِفٌ لَكَ أَخضَعُ

إِلَهي فَآنِسني بِتَلقينِ حُجَّتي　　إِذا كانَ لي في القَبرِ مَثوىً وَمضجَعُ

إِلَهي لَئِن عَذَّبتَني أَلفَ حَجَّةٍ　　فَحَبلُ رَجائي مِنكَ لا يَتَقَطَّعُ

إِلَهي أَذِقني طَعمَ عَفوكَ يَومَ لا　　بَنونٌ وَلا مالٌ هُناكَ يَنفَعُ

إِلَهي إِذا لَم تَرعَني كُنتُ ضائِعاً　　وَإِن كُنتَ تَرعاني فَلَستُ أَضيعُ

---

[86]- موقع الديوان .

إلَهي إذا لَم تَعفُ عَن غَيرِ مُحسِنٍ فَمنَ لمُسيءٍ بِالهَوى يَتَمَتَّعُ

إلَهي لَئِن فَرَّطتُ في طَلَبِ التُقى فَها أَنا أَثْرَ العَفو أَقفو وَ اتبَعُ

إلَهي لَئِن أَخطَأتُ جَهلاً فَطالَمَا رَجَوتُكَ حَتّى قيلَ ها هُوَ يَجزَعُ

إلَهي ذُنوبي جازَت الطَودَ وَاَعتَلَت وَصَفحُكَ عَن ذَنبي أَجَلُّ وَأَرفَعُ

إلَهي يُنجّي ذِكرُ طَوْلِكَ لَوعَتي وَذِكرُ الخَطايا العَينُ مِنّيَ تَدمَعُ

إلَهي أَنِلني مِنكَ روحاً وَرَحمَةً فَلَستُ سِوى أَبوابِ فَضلِكَ أَقرَعُ

إلَهي لِئَن أَقصَيتَني أَو طَرَدتَني فما حِيلَتي يا رَبُّ أَم كَيفَ أَصنَعُ

إلَهي حَليفُ الحُبّ بِاللَيلِ ساهِرٌ يُنادي وَيَدعو وَالمغَفَّلُ يَهجَعُ

وُكُلَهُمُ يَرجو نَوالَكَ راجياً لِرَحمَتِكَ العُظمى وَفي الخُلدِ يَطمَعُ

*** *** ***

وقال آخر:

يا فَاطِرَ الخَلْقِ البَدِيْعِ وكَافِلاً رِزْقَ الجَمِيْعِ سَحَابُ جُوْدِكَ هَاطِلُ

يا مُسْبِغَ البِرّ الجَزِيْلِ ومُسْبِلَ الـ سّتْرِ الجَمِيْلِ عَمِيْمُ طَوْلِكَ طَائِلُ

يا عَالِمَ السِّرِ الخَفِيّ ومُنْجِزَ الْـ وَعْدِ الوَفِيّ قَضَاءُ حُكْمِكَ عَادِلُ

عَظُمَتْ صِفَاتُك يَا عَظِيْمُ فَجَلَّ أَنْ يُحْصِي الثَّنَاءَ عَلَيْكَ فِيْهَا قَائِلُ

الذَّنْبُ أنْتَ لَهُ بِمَنِّكَ غَافِرٌ ولِتَوْبَةِ العَاصِي بِحِلْمِك قَابِلُ

رَبٌّ يُرَبِّي العَالَمِيْنَ بِبِرِّهِ وَنَوَالُهُ أبَدًا إلَيْهِمْ وَاصِلُ

تَعْصِيْهِ وهْوَ يسُوقُ نَحْوَكَ دَائِمًا مَالا تَكُونُ لِبَعْضِهِ تَسْتَاهِلُ

مُتَفَضِّلٌ أبَدًا و أنْتَ لِجُوْدِهِ بِقَبَائِح العِصْيَانِ مِنْكَ تُقَابِلُ

وإذَا دَجَى لَيْلُ الخُطُوبِ وأظْلَمَتْ سُبْلُ الخلاَصِ وخَابَ فِيْهَا الآمِلُ

و أَيسْتَ مِن وَجْهِ النَّجَاةِ فَمَالَهَا سَببٌ ولاَ يَدْنُو لَهَا مُتَنَاوِلُ

يَأْتِيكَ مِن ألْطَافِهِ الفَرَجُ الذِيْ لَمَ تَحْتَسِبْهُ و أنْتَ عَنْهُ غَافِلُ

يا مُوْجِدَ الأشْيَاءِ مَن ألْقَى إلَى أبْوَابِ غَيرِك فَهُو غِرٌ جَاهِلُ

ومَن اسْتَرَاحَ بِغَيرِ ذِكْرِك أَوْرَجَا أحَدًا سِوَاكَ فَذَاكَ ظِل زَائِلُ

عَمَلٌ أرِيْدَ بِه سِوَاكَ فإنَّهُ عَمَلٌ وإنْ زَعَمَ المُرَائِيْ بَاطِلُ

وإذا رَضَيْت فَكُلُ شَيْءٍ هَيِنٌ وإذَا حَصلْتَ فَكُلُ شَيْءٍ حَاصِلُ

أَنَا عَبْدُ سُوءٍ آبِقٌ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاه أَوْزار الكَبَائِرِ حَامِلُ

قد أَثْقَلَتْ ظَهرِي الذُنُوبُ وَسَوَّدَتْ

صُحْفِي العُيُوبُ وسِتْرُ عَفْوِكَ شَامِلُ

هَا قَدْ أَتَيْتُ وَحُسْنُ ظَنِّيْ شَافِعِيْ

وَوَسَائِلِيْ نَدَمٌ ودَمْعٌ سَائِلُ

فاغِفْرْلِعَبْدِكَ مَا مَضَى وَارْزُقْهُ تَوْ

فِيْقًا لِمَا تَرْضَى فَفَضْلُكَ كَامِلُ

و افْعَلْ بِهِ مَا أَنْتَ أهْلُ جَمِيْلِه

والظَّنُّ كُلَّ الظَّنِّ أنكَ فَاعِلُ

*** *** ***

وقال آخر:

سُبحانَ من أرضُه للخلقِ مائدة كلٌّ يو افيه رِزقٌ منه مَكفولُ

غدَّى الأنامَ وعشَّاهم فأوسَعهمْ وفضلُه لبُغاةِ الخيرِ مبذولُ

تعالى الواحدُ الصمدُ الجليلُ وحاشى أن يكونَ له عديلُ

هو المِلكُ العزيزُ وكلُّ شيءٍ سِواهُ فهو مُنتقصٌ ذليلُ

وما مِن مذهبٍ إلا إليه وإنَّ سبيلَه لهو السَّبيلُ

وإنَّ له لَمَنًّا ليس يُحصى وإنَّ عطاءَه لهو الجَزيلُ

وإنَّ عطاءَهُ عدلٌ علينا وكلُّ بلائه حسنٌ جميلُ

وكلُّ مفوَّهٍ أثنى عليهِ لِيَبلُغَهُ فمُنحسِرٌ كَليلُ

*** *** ***

وقال لشيخ حافظ الحكمي في مقدمة وسيلة الحصول إلى مهمات الأصول :

الحمدُ للعدلِ الحكيم الباري المُستعانِ الواحدِ القهارِ

ذي الحكمة البالغةِ العليَّه والحُجة الدامغةِ القويَّه

قضى بِكونِ ما يشا فأبرَمهْ وشرَّعَ الشرعَ لنا وأحكمهْ

بأنَّه الربُّ بلا مُنازَعه وهْوَ الإلهُ الحقُّ لا نِدذَ معه

فبالقضا نؤمنُ والتألُّه   بشرعِه فالخلقُ والأمرُ لهُ

وكلُّها يصدُرُ عن مشيئتِهْ   وعِلمه وعدلِه وحكمتهْ

أحكمَ كلَّ الخلقِ بالإتقانِ   والأمرِ بالعدلِ والإحسانِ

أحمدُه والحمدُ مِن إنعامِهِ   إذْ ذِكرُنا إيَّاهُ مِن إلهامِهِ

قصيدة لله في الآفاق آيات

لله في الآفاق آيات لعل   أقلها هو ما إليه هداك

ولعل ما في النفس من آياته   جب عجاب لو ترى عيناك

والكون مشحون بأسرار إذا   حاولت تفسيراً لها أعياك

قل للطبيب تخطفته يد الردى   من يا طبيب بطبه أرداك

قل للمريض نجا وعوفي بعدما   عجزت فنون الطب ! من عافاك

قل للصحيح يموت لا من علة   من بالمنايا يا صحيح دهاك

قل للبصير وكان يحذر حفرة فهوى   بها ! من ذا الذي أهواك

بل اسأل الأعمى خطى بين الزحام بلا   اصطدام ! من يقود خطاك

قل للجنين يعيش معزولاً بلا   راع ومرعى ! من الذي يرعاك

قل للوليد بكى وأجهش بالبكاء   لدى الولادة ! من الذي أبكاك

وإذا ترى الثعبان ينفث سمه فاسأله   من ذا بالسموم حشاك

واسأله ! كيف تعيش يا ثعبان   أو تحيا وهذا السم يملأ فاك

واسأل بطون النحل ! كيف تقاطرت   شهداً وقل للشهد ! من حلاك

بل اسأل اللبن المصفى كان بين   دم وفرث ! من الذي صفاك

وإذا رأيت الحي يخرج من حنايا   ميت فاسأله ! من أحياك

قل للهواء تحسه الأيدي ويخفى   عن عيون الناس ! من أخفاك

قل للنبات يجف بعد تعهد ورعاية ! من بالجفاف رماك

وإذا رأيت النبت في الصحراء يربو وحده فاسأله ! من أرباك

وإذا رأيت البدريسري ناشراً أنواره فاسأله ! من أسراك

واسأل شعاع الشمس يدنووهو أبعد كل شيء ! ما الذي أدناك

قل للمريرمن الثمار! من الذي بالمرمن دون الثمارغذاك

وإذا رأيت النخل مشقوق النوى فاسأله ! من يا نخل شق نواك

وإذا رأيت النارشب لهيبها فاسأل لهيب النار! من أوراك

وإذا ترى الجبل الأشم مناطحاً قمم السحاب فسله ! من الذي أرساك

وإذا ترى صخراً تفجربالمياه فسله ! من بالماء شق صفاك

وإذا رأيت النهربالعذب الزلال جرى فسله ! من الذي أجراك

وإذا رأيت البحربالملح الأجاج طغى فسله ! من الذي أطغاك

وإذا رأيت الليل يغشى داجياً فاسأله ! من يا ليل حاك دجاك

وإذا رأيت الصبح يسفرضاحياً فاسأله ! من يا صبح صاغ ضحاك

ستجيب ما في الكون من آياته عجب عجاب لو ترى عيناك

ربي لك الحمد العظيم لذاتك حمداً وليس لواحد إلاك

يا مدرك الأبصاروالأبصار لا تدركك له ولكله إدراكا

إن لم تكن عيني تراك فإنني في كل شيء أستبين علاك

يا أيها الإنسان مهلاً ما الذي بالله جل جلاله أغراك ؟

*** *** ***

اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَ اقْبِضْنِي إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الْوَفَاةَ خَيْرٌ لِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْخَشْيَةَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلِمَةَ الْحَقّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَالْقَصْدَ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ،

وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ فِي وَجْهِكَ، وَشَوْقًا إِلَى لِقَائِكَ، مِنْ غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ أَوْ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الْهُدَاةِ الْمُهْتَدِينَ .(النسائي والسيوطي في الجامع الصغير) .

تمَّتْ ولله الحَمْدُ والمنَّةُ

ملحق

عناوين المجموعة الأولى مِنْ رَسَائِلِ راحَةِ الأَرْوَاحِ (خمسة عناوين)

الرسالة الأولى : فَرَحُ العبدِ الأوَّاهِ بمَعْرِفةُ اللهِ (الطُرُقُ الموصِلَةُ إلى مَعرِفةِ اللهِ تعالى بالتَّفكُّرِ في آياتِه القرآنية والكونية وأسمائه الحسنى العلية و أَثَرُهَا عَلَى ظَاهِرِ الْمُسْلِمِ وَبَاطِنِهِ وصفاتُ القَلبِ الموصولِ باللهِ تعالى) .

الرسالة الثانية : التُّحْفَةُ الْبَهِيَّةُ في مَعرِفَةُ النَّفْسِ البَشَرِيّةِ (حَقِيقَتُها وصِفَاتُها وضَرورةُ تَزْكيتِها) .

الرسالة الثالثة : حُسْنُ الإفَادَةِ في أَهميَّة ومقاصد الْعِبَادةِ (مَفْهُومُها وفَضَائِلُهَا ومَقَاصِدُها و أنْواعُهَا و أَثرُهَا في تَزكِيةِ النفس) .

الرسالة الرابعة : تَشْوِيقُ القُلُوبِ إلى ذِكْرِ عَلَّامِ الغِيوبِ (مَفْهُومُ ذكر الله وفَضَائلُه و أنواعُه وَفَوائِدُه ورُوحَانيَّاتُه و أَثَرُهُ في تَزْكِيَةِ النَّفْسِ) .

الرسالة الخامسة : إِنَارَةُ الْفِكْرِ بِضَرُورَةِ الرُّجوعِ إلى حِلَقِ الذِّكْرِ (فَضَائِلُهَا وَفَوائِدُها وآدابُهَا ورُوحَانِيَّاتَها و أَثَرُهَا في تَوقِيرِ العُلَمَاءِ) .

المراجع

1- تحفة المودود بأحكام المولود– لابن القيم .

2- تفسير الطاهر ابن عاشور للآية .

3- جامع العلوم والحكم – لابن رجب .

4- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل - لابن القيم .

5- شرح صحيح مسلم – للنووي .

6- شرح الدعاء من الكتاب والسنة– موقع الكلم الطيب .

7- رسالة القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه – للسيوطي .

8- سنن الترمذي .

9 - صحيح أبي داود– للألباني

10-فتح القدوس بمجموعة الدرر والفوائد من الدروس - للشيخ إبراهيم محمد زين - موقع صيد الفوائد.

11-مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين – لابن القيم .

12- موسوعة النابلسي الإسلامية .

13- مقال : معرفة الله وخطورة الجهل به – موقع ملتقى الخطباء .

14- مقال : لذة معرفة الله - د. شريف فوزي سلطان – شبكة الألوكة الشرعية 15- مقال معرفة الله تعالى مفهومها وطرقها ، و آثارها في الحياة – موقع وسطيون 16- ومقال : من الطرق المؤدية إلى معرفة الله تعالى – موقع مداد .

17-مقال : هداية الهدهد وعجائب صنع الله فيه - للدكتور عمر سليمان الأشقر - موقع معرفة الله .

18- مقال : حاسة الشم لدى الحيوانات - للأستاذ هارون يحي – موقع معرفة الله تعالى .

19- مقال: الله الخالق الخلاق – للأستاذ حسام بن عبدالعزيز الجبرين – موقع الألوكة الشرعية .

20- مقال: قلب موصول بالله - د. هاني درغام – شبكة الألوكة الشرعية .

21- مقال : الأدب مع الله جل جلاله - ربيع شكير – شبكة الألوكة الشرعية .